

بحوث في فكر بديع الزمان سعيد النورسي

الدكتور

أحمد عبد الرحيم السايح






منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

بحوث فى فكر

بديع الزمان سعيد النورسى

د. أحمد عبد الرحيم السايح

الطبعة الأولى

مركز الكتاب للنشر

الطبعة الأولى

١٩٩٩



مصر الجديدة: ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
ت: ٢٩٠٨٢٠٣-٢٩٠٦٢٥٠-فاكس: ٢٩٠٦٢٥٠
مدينة نصر: ٧١ شارع ابن النفيس - المنطقة السادسة - ت: ٢٧٢٣٣٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الذى جعل علماء الأمة أهل خشيته. والصلاة والسلام على الرسول الصادق الآمين محمد المبعوث رحمة للناس أجمعين. وعلى أله وصحبه، ومن اهتدى بالإسلام والتزم الطريق السليم.

أما بعد....

فإن الإمام بديع الزمان علم من أعلام الفكر الإسلامى الذين ساهموا فى العطاء لهذه الأمة. فى وقت اشتدت فيه ضربات الأعداء، وكيد الكائدين.

إن الإمام بديع الزمان سعيد النورسى كان حكيما، حينما انطلق فى رسائله من الإيمان، لأن الإيمان هو الذى صنع الرجال الذين بنوا مجد الأمة.

والأمة الإسلامية أحوج ما تكون إلى معرفة رجالها الذين قاوموا كل سلبية، وواجهوا كل انحراف، وعمدوا إلى التربية التى تصنع الشخصية فى الشخص، والرجولة فى الرجل..

لقد كان بديع الزمان سعد النورسى عبقريا فذاً، وعالماً صادقاً للإسلام ولقضايا الأمة.

والأمة الإسلامية فى هذا العصر الذى كثرت فيه المتاهات، واختلطت الأمور، فى أمس الحاجة إلى دراسة حركات رجالها الذين اختطوا الطريق، ووضعوا المناهج.

لقد كانت كليات رسائل النور التى وضعها بديع الزمان سعيد النورسى ضياء ينير الطريق، ويغرس المعالم الواضحة.

وإن الثقافة الإسلامية الأصيلة، هى التى تمتد إلى أصول الأمة، وتنهل من عطاء علماءها الفياض.

وجدير بأمة تريد أن تنهض من كبوتها، وتقوم من عثرتها، وتنفض غبار التبعية والاستجداء. أن تتعلم من رجالهم وتأخذ عنهم. ففى ذلك النجاح والفلاح.

لقد ترك بديع الزمان سعيد النورسى مدرسة، تُخرج للأجيال رجالا، يعملون فى صمت دون ضجيج، ويستعذبون كل مشقة فى سبيل الله.

وما أحرانا أن نتعرف على هؤلاء الأعلام، ونقرأ أفكارهم وما أبدعته أقلامهم، ففى ذلك يمن الطالع، والفلاح.

ومدرسة الإمام بديع الزمان سعيد النورسى مدرسة فريدة متميزة، تسعى إلى التربية، والإعداد، وتهذيب النفوس، على منهج تربية الرسول صلى الله عليه وسلم لأجيال الأمة.

جدير بأمتنا أن تعمل على بناء شخصيتها التى لا تعتمد إلا على الإيمان، الذى يقود إلى النصر.

وإن الصحوة الحقيقية لهذه الأمة هى صحوة عمل، وإنتاج، وتخطيط، وحسبنا ذلك بداية فى الطريق.

الدكتور / أحمد عبد الرحيم السايح

العبقرية

إن الحديث عن الإمام بديع الزمان سعيد النورسى حديث فياض متدفق، ملىء بالجوانب الشامخة، لأن حياة سعيد حياة آهلة بالخصوبة والعطاء.

وحسبى فى هذه المقالة أن أتناول جانباً واحداً من جوانب سعيد النورسى المتعددة وهو جانب العبقرية، فهذا الجانب الهام يستحق منا وقفة نطالع خلالها عبقرية الرجل الفذة.

لقد ظهر سعيد النورسى فى فترة حرجة، كانت أحوج ما يكون إلى الإمام سعيد، لتنمية الإحساس بالحياة، والقدرة على الإشباع العاطفى البناء، والمساهمة الفعالة فى إرساء الأمن.

وسعيد النورسى. ولد فى قرية "نورس" من بحيرة "وان" شرقى تركيا. عام ١٢٩٣ هـ الموافق ١٨٧٦ م. ومن هنا اكتسب لقبه "النورسى".

وسعيد النورسى ولد من أبوين كريمين فاضلين. فقد كان والده: الشيخ "ميرزا" ورعاً، يضرب به المثل فى التقوى والصلاح. وقد نقل عنه: أنه لم يذق حراماً، ولم يطعم أولاده إلا من حلال. وأن "نورية" أمه كانت كذلك فى قمة الورع. وينقل عنها أنها قالت: "ما أرضعت أطفالى إلا وأنا على طهر ووضوء".

فى هذا البيت الذى يسوده الإيمان، وفى ظل هذه الأسرة الكريمة ترعرع سعيد النورسى ونشأ، وانخرط بعد سن الطفولة فى سلك طلب العلم فى المدارس الدينية.. وهى مؤسسات للتعليم العالى يمكن اعتبارها مكافئة أو مناظرة للجامعات أو الكليات أو معاهد الدراسات الإسلامية المعاصرة.

واكتشف العلماء والمدرسون الذين أشرفوا على تعليم سعيد، أن سعيداً يتمتع بمواهب فائقة فقد أكرمه الله بذاكرة قوية وحادة تمكنه من استذكار القطع العربية الصعبة واستظهارها فى وقت قصير جداً.

ومما يروى فى هذا الصدد. أنه كان يستظهر عدداً كبيراً من المراجع الإسلامية الشهيرة، كما كان يتمتع بقوة إدراك حاد، ساعده ذلك على أن يسير مسافات

كبيرة فى مجال العلوم فى مـدة زمنيـة وجـيزة تـأخذ مـن الآخريـن سـنوات طويلـة لدراستها، ومن ثم استحق أن يطلق عليه اسم "بديع الزمان".

لقد سطعت شخصيته ببوارق النبوغ والذكاء منذ حداثة سنه، وتلقـى العلـوم الإسلامية على أشهر علماء عصره، وتبحر فى هذا العلوم بجهده الشخصى، ونـال إجازته العالمية وهو ابن أربع عشر سنة.

وقد شغفته العلوم الحديثة، واستأثرت باهتمامـه. فـانكب علـى دراسـتها منـذ سـنة ١٨٩٣ م فـى "وان" فـدرس الرياضيـات، والفلـك، والكيميـاء، والفيزيـاء، والجيولوجيا، وغير ذلك من علوم، وألف فى البعض منها.

وعندما بلغ مبلغ الرجال نظم من بعض طلابه والمتطوعين فرقة الأنصار "ضـد الروس فى الحرب العالمية الأولى، وعين قائداً عاماً لها، ودخل معـارك عديـدة ضـد القوات الروسية المعتدية، أثارت إعجاب القادة العسـكريين، وثنـاءهم علـى بلائـه الحسن.

وألف أثناء هذه الحرب وهو فـى ميـادين القتـال وحفـر الخنـادق، جـزءا مـن تفسيره القيم" إشارات الإعجاز فى نطاق الإيجاز "باللغة العربية. وقـد أمـلاه علـى أحد تلامذته الملازمين له.

سقط جريحا فى هذه الحرب، وأسر من قبل الروس، وبقـى فـى سـيبيريا مـدة سنتين وأربعة أشهر، فأدركته عناية اللـه فى هذه المحنة فاستطاع الهرب من الأسـر، والعودة إلى استانبول. وعين عضوا فى أعلـى مجلس علمـى فـى الدولـة العثمانيـة. وهو: "دار الحكمة الإسلامية" وألف فى هذه الفترة نحـو أحـد عشـر مؤلفـا باللغـة العربية تدور كلها حول العقيدة وقضايا الإيمـان. ومـا أن دخـل الحلفـاء استـانبول محتلين، حتى كان فـى مقدمـة صفـوف المجـاهدين الذيـن يدافعـون عـن عقيدتهـم وبلادهم بكل قوة.

وعندما تعرضت الأمة الإسلامية إلى غزو فكرى شرس، أدرك سعيد النورسى بعبقريته أن ميدان الجهاد بالنسبة له قد انحصر فى تربية النفوس على الإيمان، وتثبيت القلوب على العقيدة، والقيام بما يؤدى إلى احتفاظ المسلم بشخصيته الإسلامية.

لأن أخطر ما استهدفه الغزو الفكرى فى برامجه التخريبية، هو هدم الشخصية الإسلامية، هدماً عقدياً، وثقافياً، وسلوكياً، وعاطفياً. ولعل طبيعة الغزو لم تنشأ إلا من جراء انهدام الشخصية الإسلامية. وما أعقب ذلك من غياب الروح الرسالية التى تتدفق بالحركة نحو الكمال، وتشع بالرشد والهداية.

ولذا نجد الإمام سعيد النورسى ينكب على إملاء "رسائل النور" على طلابه ومحبيه، وقد أتم هذه الرسائل خلال ثلاثة وعشرين عاما قضاها بين الحبس والنفى والتشريد. ورسائل النور تزيد على مائة وثلاثين رسالة، كلها جاءت تضع العلامات المضيئة فى الطريق.

واستمر الإمام بديع الزمان سعيد النورسى فى العطاء مجاهداً، ومؤلفاً، ومعلماً، وناشراً للعلم، حتى اختاره اللـه لجواره فى ليلة القدر سنة ١٣٧٩هـ الموافق ٢٣ ماربس سنة ١٩٦٠م.

وعبقرية الإمام بديع الزمان سعيد النورسى تتجلى فى مواقف كثيرة، ومتعددة. والعبقرية حينما يكون مصدرها الإيمان باللـه، تهدى إلى أنبل الأمور، ومن المؤكد أن العبقرى إنسان يقيس الأشياء بالمقياس الخاص الذى يعلوا على مقاييس العامة، ويأخذ نفسه به.

والعبقرية عند الإمام سعيد تنمو على البذل والعطاء، وتقول "نحن" ولا تقول "أنا" مبتورة الجذور والفروع عما حولها، وحتى لو سمعت منها "أنا" فلا تفهم معناها إلا "نحن".

وآية العبقرية عند السعيد النورسى: سبق الرؤية، فضلا عن وضوحها. فآية العبقرية أن تلهم صاحبها ما يحسب اليوم كفراً، ويحسب فى الغد حقيقة من حقائق الإيمان والحكمة، ومصلحة من مصالح الواقع والعيان.

العبقرية يلتقى فيها سداد الفكر بشجاعة الضمير، وهى الهام ربانى ووضوح فى الرؤيا، والتوقعات فى الرأى والفطنة، وبلوغ هذا كله مجتمعاً ومتفرقاً غاية تثير الإعجاب عند من خبروها بالتجربة أو السماع.

والعبقرى يولد فى المجتمع كالفلتة التى تنبت على غير قصد، فى فرع من فروع شجرة الحياة، ثم تصبح الفلتة مثلاً يحتذى، وقالباً يصب فيه الأنداد والنظراء.

ويكاد يكون معروفا، أن البطل قد ينحرف عن الجادة الكبرى، مرضاة لكبريائه وسلطانه، ولكن العبقرى لا يكترث لجاه أو سلطان إذا حادا عن غايته.. فالعبقرية تفرد تؤيد استحالة التساوى بين الناس فى المواهب.

والعبقرية بكل هذه المعانى بدت على سعيد النورسى، منذ عرف نفسه بين أبويه، وفى مدارس العلم. لقد كان قمة فى الذكاء والنبوغ والتفوق.

ومن دلائل عبقرية سعيد النورسى. أنه أدرك بوعيه الإيمانى، أنه ليس من الكياسة أن يعتزل الإنسان الناس.

لأن الإنسان نهى عن الإنزواء، وإيثار حياة العزلة. يقول أبو هريرة رضى الله عنه: مر رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعب فى عيينة من ماء عذبة فأعجبته. فقال: لو اعتزلت الناس فأقمت فى هذا الشعب. ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: "لا تفعل، فان مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاماً. ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟ أغزو فى سبيل الله..."رواه الترمذى والحاكم.

وتبدو فى هذا الحديث الإيجابية الواضحة فى حياة المسلم الحق. فالمسلم مكلف أن يقدم للمجتمع أى خير، بأى جهد، وبأى نوع. ولقد كان سعيد النورسى على وعى تام بهذه المعانى القيمة التى تأخذ بالمسلم إلى سلوكية هادفة وواعية. سلوكية ليست خيالية أو وهمية، بل إنسانية عملية، تبلغ أقصى درجات الدقة فى التحقق حينما تتمخض "عبودية" خالصة لله تعالى.

ومن عبقرية الشيخ بديع الزمان سعيد النورسى ابتعاده عن السياسة. وقد أكد هذا الابتعاد بقوله: "أعوذ بالله من الشيطان والسياسة" وقد رأى بعض الكاتبين "أن الابتعاد عن السياسة جاء نتيجة لفشل سعيد النورسى فى إدراك حقيقة المواقف السياسية".

والحقيقة أن الأمر غير ذلك. فالسياسى المسلم الملتزم حينما يقف أمام قضية سياسية، ويجد نفسه قادراً على كسب الموقف فيها عن طريق الغدر والخديعة، وتوريط الآخرين، فانه لا يقدم على ذلك رغم هذه القدرة، ورغم قدرته على تحقيق ما كان يصبو إليه. كان يترفع، ويتورع، بعكس السياسى الآخر، فإنه يعتبر هذا الأسلوب حنكة، ودهاء، وعبقرية سياسية، وفرصة سانحة لتحقيق أهدافه.

ومن عبقرية الإمام أنه كان يواجه التحديات بعمل بنائى، يتصدى للتيارات فى حزم. ومما يذكر فى سيرته، أنه بينما كان الشيخ سعيد النورسى مشغولاً بالإفادة وتدريس هذه العلوم والنصح والإرشاد وقعت عينه على تصريح خطير فى الصحف لوزير المستعمرات البريطانية "غلادستون" الذى ألقاه فى مجلس العموم البريطانى، وهو يخاطب النواب فى حدة وعجرفة، وبيده نسخة من القران الكريم: "مادام هذا القرآن بين المسلمين فلن نستطيع أن نحكمهم لذلك فلا مناص لنا من إزالته من الوجود،أو قطع صلة المسلمين به "فقد هز هذا الخبر كيانه،وزلزله زلزالاً شديداً، فقرر من أثره أن يكرس كل حياته لإظهار إعجاز القرآن الكريم،وتقوية ارتباط المسلمين به فقال: "لأبرهنن للعالم بأن القرآن شمس معنوية لا تنطفئ.ولا يمكن إطفاء نورها".

ومن عبقرية الشيخ سعيد النورسى ما حدث فى لقائه مع مفتى الديار المصرية لبحث مشاكل المسلمين. فقد التقى الشيخ سعيد بفضيلة الشيخ محمد بخيت المطيعى مفتى الديار المصرية، الذى كان قد جاء لزيارة استانبول، وتم اللقاء بينهما فى مقهى قرب جامع "أيا صوفيا" بعد انتهاء الصلاة. فبحثا معا أوضاع العالم الإسلامى.

فسأله المفتى: ما رأيك فى الحرية الموجودة الآن فى الدولة العثمانية ؟ وما رأيك فى مدنية أوربا.

فأجابه الإمام سعيد النورسى: "إن الدولة العثمانية حبلى حاليا بجنين أوربا وستلد يوماً ما.

وأما أوربا فهى أيضا حبلى، بجنين الإسلام وستلد يوما ما ". فأعجب المفتى بهذا الجواب، وأيده فى هذا الرأى.

وهذا الجواب لم يأت جزافا، ولم يطرح حشوا، بل جاء لعبقرية سامية، واعية لحقائق فى الوجود.

ومن عبقرية الشيخ سعيد النورسى رفضه الهجرة من وطنه. لقد عاش الرجل متنقلا بين المدن والقرى ينشر الدعوة الإسلامية. وقد لاقى فى سبيل ذلك أذى كثيرا وعناء شديدا، وقد عرض عليه وكيل وزارة المعارف الباكستانية الهجرة إلى باكستان وشجعه على ذلك بأنه سيجد هناك تقديرا أكبر لعمله ودعوته، وينجو من العذاب الذى يعانى منه. إلا أن الرجل العبقرى رفض هذه الهجرة، لأن عبقريته تأبى عليه أن يبتعد عن مكامن الداء. وليس من كياسة الدعاة أن يهجروا أوطانهم لمجرد التضييق عليهم، أو لتعذيب يحل بهم.

ومن عبقرية الشيخ سعيد النورسى رفضه الصدقات والهدايا. فقد عاش عفيفا، متعففاً عما فى أيدى الناس.

ويقول: "لا أبتغى الأجر. إنما أجرى على الله تعالى".

ولهذا ابتعد عن الصدقات والزكوات والهدايا من أى مصدر كانت ولقد قدم وكيل وزارة المعارف الباكستانية هدية كبيرة من المال، فاعتذر الشيخ النورسى عن قبول الهدية.

ولما ألح عليه قال: "إنك تحملنى بذلك على الإخلال بقاعدتى التى التزمتها فى حياتى. إن من أهم التهم التى توجه فى هذا العصر إلى أهل العلم ودعاة الإسلام، جمع المال من الناس، وإننى مدعو - بما أقامتنى الأقدار فيه من هذه الوظيفة - إلى محاربة هذه التهم بالتزام رفض أى مال يأتينى من أى إنسان".

ومن عبقرية الشيخ سعيد النورسى استبطانه لعقول الناس ونفوسهم، وما يدور فيها من أفكار، وما يشغلها من مشاكل ومعضلات.

ومن عبقريته كذلك، أنه أعطى الإيمان رحيق أفكاره وروحه، وعمقه فى القلوب بمعارفه، وكشف للمؤمنين عن تجاربه ومعاناته فى تزكية النفس وتطهيرها.

ومن عبقريته أيضا كليات رسائل النور "فإنها جاءت لتبنى فى الإنسان المسلم الروح الإيجابية التى تؤهله للعطاء، وتنمى فيه القدرة على العمل بما يفتح له من آفاق التفكير والممارسة،وبما يزوده من بناء ذاتى، ودافع حركى، ليصبح الإنسان إنسانيا ناضجا لممارسة الحياة بالطريقة التى يرسمها ويخطط أبعادها الإسلام.

ومن عبقرية الشيخ سعيد النورسى، أنه عمل على تربية الأجيال على أساس وحدة فكرية وسلوكية وعاطفية متماسكة، بحيث تقوم الأجيال على أساس من التنسيق والتوافق الفكرى والعاطفى والسلوكى الملتزم الذى لا يعرف التناقض ولا الشذوذ، لينسحب هذا الالتزام على كل مواقف الناس وأنماط سلوكهم ونشاطهم.

ومن عبقرية الإمام بديع الزمان أنه كان لا يطغى على مواقفه الانفعال، ولا يسيطر عليه التفكير المادى، ولا الانحراف الفكرى، المتأتى من سيولة العقل،

وامتداده اللامعقول، كما لا يطغى جانب من الميول والنوازع على بقية قواه ودوافعه.

إن الباحث فى سيرة وحياة الإمام وجهاده وكفاحه ومؤلفاته وكليات رسائل النور، سوف يطالع وثبات هائلة فى عالم النور، هى إشارات مضيئة فى الطريق.



الإمام النورسى

مفكراً

الإمام بديع الزمان سعيد النورسى علم من أعلام الفكر الإسلامى عاش أكثر من ربع قرن من الزمان فى السجون والمنفى، واستطاع بتوفيق الله أن يحمل شعلة النور وسط ظلام الأيام، فكانت كلماته رائدة فى إرساء المعالم والعلاقات.

لقد جاء النورسى فى فترة من فترات التاريخ كانت الأمة الإسلامية فى أشد الحاجة إلى فكر إسلامى مستنير يدعو إلى العمل والإنتاج.

وقد لا يخفى على عاقل أن أخطر منزلق يهوى به الفكر وتتداعى الكلمات فى هاويته السحيقة: هو التضليل، والخداع، والتمويه، وقلب الحقائق، وتشويه الحقيقة عن طريق تصنيع الكلمة، وزخرفة القول، والدخول إلى المخاطب من نقطة الضعف والاستغفال، لإغرائه، والإيقاع به، والإيحاء إليه بسلامة المفهوم المزيف الذى تحمله الأفكار الضالة.

ولكم تهاوت أمم وشعوب وأجيال، وتساقطت فى هاوية الضلال والجمود والتحجر والانحراف والفساد بسبب الأفكار الضارة التى يرقص السذج والجهال على نغم إيقاعها.

ولكم عانى الإسلام من أولئك الشياطين صناع الفكر الضال، والكلمة المزخرفة، التى قادت البشرية إلى هاوية الضلال والانحراف.

فلقد كان للفكر الهدام فى كل عصر وجيل أثره ودوره التخريبى فى حياة الناس، إلا أن البشرية لم تشهد فى مرحلة من مراحل حياتها وضعاً كان فيه للفكر خبراء ومتفلسفون،وأجهزة ومؤسسات كعصر النورسى،هذا العصر الذى اتخذ فيه الفكر صيغة الفلسفة والنظرية،والمبدأ الذى يعتنقه الأتباع، ويدافعون عنه.

لذا كان الإنسان مع هذه التبعية فى حاجة إلى فكر يبصر الإنسان بالمواقع، وينير له السبيل ويضع له العلامات البارزة فى الطريق. لهذا أدرك النورسى أن الأمة الإسلامية محاصرة بين غربتين: غربة زمان، وغربة مكان.

أما غربة الزمان فهى بعد الأمة عن ماضى حضارى مشرق لم تعد تربط الأمة به عوامل الثقافة الفاعلة أو البانية.

وأما غربة المكان فهى بعد الأمة عن واقع حضارى معاصر تجهل عنه كل شيء، مما مثل فجوات حضارية كبرى ليس من السهل على الأمة الإسلامية تجاوزها وتجاهلها.

ولذا دعا النورسى إلى خروج الأمة الإسلامية من الاغتراب الزمانى والاغتراب المكانى.

وذلك بالربط بين الواقع وثوابت الحضارة الإسلامية وبين مصادر وعوامل التقدم المعاصر.

وليس هناك من وسيلة للربط غير الدين والعلم فى إطار من حرية الفكر وسياسة عقلانية وتسامح مستنير.

وإن التقدم البشرى فى مختلف المراحل والمجالات ليس إلا حصيلة الإبداع الفكرى والاحتكاك العلمى، ولا عيب أن نأخذ من حضارات الأمم ما يفيدنا ولكن العيب أن نظل عالة على أمم الأرض، نأخذ منها ولا نعطى.

لقد أدرك بديع الزمان سعيد النورسى أن الانغلاق ليس اللائق بالعقلاء. وأن التبعية الحضارية غير ملائمة لمن يمتلكون خصوصية إسلامية.

والعزلة الحضارية والجهل صنوان كلاهما تخلف وكلاهما حجاب يمنع وصول الضوء وكلاهما عقبة كأداء فى طريق التطور والتقدم.

ولهذا عمل الإمام سعيد النورسى على نشر الفكر الإسلامى الصحيح الذى يفتح الأفاق أمام مجتمعات الأمية الإسلامية.

ولقد كان النورسى مفكراً إسلامياً مستنيراً، ومجدداً للفكر الإسلامى ليظل فى عطائه.

"ويقول العلماء أن النورسى مجدد لا نظير له فى مسلكه فى العصـر الحديـث، لأنه لم ينطلق من علم معين ولا يبدأ من أستاذ موجه، ولا اصطبغ فى ما قـال ومـا كاتب بمعارف محسوبة، على الرغم من أساتذته الكثيرين ودراسـته علومـاً متعـددة ومطالعته لمعارف واسعة ولكنه انطلق انطلاقاً قرآنياً من الكون كله".

فالنورسى لا ينقل علماً محدوداً للناس، وإنما جاء إلى الناس بمشـاعره المتأججـة كى يفكروا كما كان يفكر.

لقد عالج بديع الزمان احتياجات العصر وعالج أمراض البشـرية بعـرض آيـات اللـه الكونية وما يتصل بالإنسـان فـى حياتـه، لذلـك اهتـم اهتمامـاً بالغـاً بالإيمـان وقضاياه ليبنى الإنسان المؤمن على معايير وضوابط إيمانية.

يقول: "إن رسائل النور هدفها إيضاح وتفصيل وإثبات لحقائق الإيمان".

ومن حكمة بديـع الزمـان أنـه فـى قضايـا الإيمـان أقـام الحديـث علـى العلـم، والعقل، والإيمان.

لأنه رأى أن الضلالة الفكرية أضرت بالمسلمين.

لهذا حرص فى رسائل النور على إحاطة الإنسـان بمناعـات عقديـة، وخلقيـة، وتربوية، تحول دون أن يتأثر هذا الإنسان بالمغريات، أو التيـارات التـى تنـال مـن كرامته.

كما زودت رسائل النور الإنسان بمضادات ذات قيم فعّالة تعالج ما قـد يبتلـى به من إصابات سلوكية تؤدى بالإنسان إلى الهاوية.

لأن فى الإنسان قابلية التأثر وهو يملك القـدرة علـى التأثـير، فكـان لابـد مـن صيانة قابلية التأثير لديـه لكـى لا يكـون مجـالاً رحبـاً للمؤثـرات الخارجيـة المنافيـة للفطرة السليمة، والذوق الرفيع.

إن الفكر الإسلامى الذى اشتملت عليه كليات رسائل النور التى وضعها بديع الزمان سعيد النورسى تضم من كتب النورسى:

- الكلمات، والمكتوبات، واللمعات، والشعاعات، وإشارات الإعجاز، وصيقل الإسلام، والملاحق وغيرها من مصنفات.

وإن الباحث فى مؤلفات النورسى يجد أن فكر النورسى الإسلامى لا يمتاز بالعمق، والشمول، والأصالة فحسب، بل ويملك القدرة الفائقة والمستمرة على استيعاب التطور، والاستجابة لكل متطلبات الحياة.

لقد أدرك النورسى أن الفكر كان وسيظل عبر التاريخ الإنسانى يحتل مركز الصدارة فى مجال التخاطب ونشر الثقافة، والوعى فى المجتمعات.

لذلك جاءت كلمات النورسى فى رسائله لتعطى الفكر الإسلامى دوراً حضارياً شامخاً فى مجال الأدب، والفلسفة، والتفسير، وحركة الإنسان فى الحياة، وتذوق جمال العلاقات الإنسانية، والإحساس بالاستقرار، والاطمئنان.



الحقائق الإيمانية

عندما تعرضت الأمة الإسلامية لتكالب شرس.. أدرك سعيد النورسى:أن ميدان الجهاد بالنسبة له قد انحصر فى تربية النفوس على الإيمان.

- تربية تجعل الإنسان إيجابيا. يعيش فى حركة فكرية، وجسدية، بناءة بعيدا عن السلوك التخريبى.

- تربية تؤهل الإنسان للعطاء، وتنمى فيه القدرة على الإنتاج، والإبداع، بما تفتح له من آفاق التفكير والممارسة.

- تربية تعد الإنسان إعدادا إنسانيا ناضجا لممارسة الحياة، بالطريقة التى يرسمها ويخطط أبعادها الإسلام. لأن الحياة فى نظر الإسلام: عمل، وبناء، وعطاء، وتنافس فى الخيرات.

- تربية تجعل الشخصية الإسلامية، شخصية متزنة. لا يطغى على موقفها الانفعال. ولا يسيطر عليها التفكير المادى،ولا الانحراف الفكرى. المتأتى من سيولة العقل، وامتداد اللامعقول.

- تربية تبنى الإنسان على أساس وحدة فكرية، وسلوكية، وعاطفية، متماسكة. على أساس من التنسيق، والتوافق الفكرى، والعاطفى، والسلوكى، الملتزم الذى لا يعرف التناقض، ولا الشذوذ.

- تربية تجعل الإنسان يشعر دوما أنه مسئول عن الإصلاح، وأنه يجب عليه أن ينهض بمسئوليته، ويقود نحو شاطئ العدل والسلام.

ومما يكاد يكون معروفا. أن أخطر ما تتعرض له الأمة، هو هدم شخصيتها الإسلامية.هدما عقديا، وثقافيا،وسلوكياً، وعاطفياً.

ولعل طبيعة الهدم، لم تنشأ إلا من جراء انهدام الشخصية الإسلامية. وما أعقب ذلك من غياب الروح الرسالية، التى تتدفق بالحركة نحو الكمال، وتشع بالرشد والهداية.

ولهذا نجد أن الإمام سعيد النورسى، ينكب على إملاء "رسائل النور" على طلابه ومحبيه.

ورسائل النور جاءت تضع العلامات المضيئة فى الطريق.. لتكون الكلمة أداة بناء، تساهم فى صنع الخير، وإشاعة الود، والمحبة، بين الناس.

ولما كان الإمام سعيد النورسى يدرك تماماً أن المبادئ الإسلامية بمفاهيمها الأساسية، ومناهجها التربوية، تصنع شخصية متميزة لها سماتها، وتوجهاتها، وغاياتها الخاصة التى تميزها بوضوح. عنى فى "كليات رسائل النور" بهذه المبادئ.

ولما كانت الشخصية الإسلامية تتميز:

- بالاتجاه العقلى.
- والإيجابية.
- والالتزام.
- والتوجه المستمر نحو الكمال.
- والاتزان.
- والإحساس الإنسانى.
- والنزوع القيادى.

فإن الإمام بديع الزمان سعيد النورسى، وضع فى سائر مؤلفاته ورسائله كل ما من شأنه، أن يكون أساساً للشخصية الإسلامية، وقواعد يشاد عليها وجودها، وتبنى عليها كل مظاهر تحققها وتجسدها.



محاسن الإيمان

في المبحث الأول ، من المقالة الثالثة والعشرين من مجموعة المقالات "من كليات رسائل النور "نجد أن بديع الزمان يقول:" نبين من آلاف محاسن الإيمان خمسة محاسن فقط من خمس نقاط":

- **النقطة الأولى:** أن الإنسان يطلع بنور الإيمان إلى أعلى عليين، لأن الإيمان انتساب.
- **النقطة الثانية:** أن الإيمان ينور الكائنات أيضاً، وينقذ الزمان الماضى والمستقبل عن الظلمات.
- **النقطة الثالثة:** أن الإيمان نور وقوة.
- **النقطة الرابعة:** أن الإيمان يجعل الإنسان إنساناً.
- **النقطة الخامسة:** أن الإيمان يقتضى الدعاء.

ولا يخفى على أحد أن هذه المحاسن، التى جاءت فى خمس نقاط. هى قوة دافعة، تسند الضعيف أن يسقط، وتمسك القوى أن يجمح، وتعصم الغالب أن يطغى ويفجر، وتمنع المغلوب أن ييأس.

إن هذه المحاسن التى جاءت من آلاف محاسن الإيمان، تملأ النفوس بالفضائل وتزكيها، وتقوم الضمائر، وتسدد العزائم، وتزكى القلوب، وتغذى العقل.

والله سبحانه وتعالى يكرر النداء فى القرآن الكريم بصيغة ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لترسيخ الإيمان وخطاب المؤمنين بالذين آمنوا، هو أمثل أنواع الخطاب، إبانة لحقيقتهم، إلى جانب ما ينطوى عليه من الدلالة على سموهم وفضلهم.

وفى النداء ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ زيادة إيناس وتكريم.. لأن أحب شئ إلى الإنسان هو أن تناديه بما يدل على سموه. والله سبحانه وتعالى بهذا النداء ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يريد أن يشعر المؤمنين، بأنه يخاطب أقرب الأشياء منهم إليه. وما فى الإنسان شئ أقرب إلى الله من الإيمان به.

والإسلام الحنيف ليس دين الترف العقلى، أو الترفيه الفكرى، ولكنه دين المنهج العملى المتكامل، الذى يرمى إلى بناء النفس المؤمنة، ويهدف إلى تكوين المجتمع الفاضل.

وليس هناك ما هو أدخل فى هذا المجال من الإيمان بالله، وما يشيع فى الأمة من الأنماط، والصور، والمظاهر.

وإذا وقفنا عند النقطة الأولى من نقاط محاسن الإيمان والتى تتضمن: "أن الإنسان يطلع بنور الإيمان إلى أعلى عليين ". وجدنا أن بديع الزمان يتابع ذلك بقوله: "ذلك أن الإيمان يربط الإنسان بصانعه الجليل، ويربطه بوثاق شديد، ونسبه إليه. فالإيمان إنما هو انتساب، لذا يكتسب الإنسان بالإيمان قيمة سامية".

فالإيمان - كما ترى - ليس فى واقع منهج بديع الزمان التربوى. سوى سلوك هادف وواعى، سلوك ليس خيالياً أو وهمياً، بل إنسانى وعملى، يبلغ أقصى درجات الدقة فى التحقيق حينما يرقى بالسالك.

ومما يكاد أن يكون معروفاً أن فى الإنسان قابلية التأثر، وهو يملك القدرة على التأثر، فكان لابد من صيانة "قابلية التأثير لديه" لكى لا يكون مجالاً رحباً للمؤثرات الخارجية المنافسة للفطرة السليمة، والذوق الرفيع، والكمالات الإنسانية الكريمة.

ولأن الإنسان يملك القدرة على التأثير فيما حوله، أصبح من الضرورى أن يظل هذا الإنسان سليماً لتظل تأثيراته سليمة، ولا يمكن أن يظل الإنسان سليماً إلا فى ظل الإيمان.

وقد لا يخفى أن النفس الإنسانية.. تسعد، وتشقى، وتصح، وتمرض، وتتسامى، وتتسافل.. وهى كذلك كالجسم بحاجة إلى وقاية الإصابة، وبحاجة إلى علاج إذا سقطت فريسة الأوبئة، التى تنتاب النفوس المظلمة، التى فقدت مناعتها، فخارت قواها.

ولا توجد مدرسة تتناول بالرعاية والعناية النفس الإنسانية، كمدرسة الإيمان الذى يطلع بصاحبه إلى أعلى عليين.

إن الإيمان يخط المسار، ويضع المنهاج، ويستجيب لنوازع النفس الخيرة وينميها، ويحول بين النفس وبين دواعى الشر والانحراف، بما وفر من قيم فعّالة تعالج ما قد يبتلى به الإنسان، من إصابات سلوكية تؤدى به إلى الهاوية، فبالإيمان تتقد جذوة الحب الإلهى فى اليقين.

- **أما النقطة الثانية** من نقاط محاسن الإيمان: فإنها تنطلق من أن الإيمان ينير الكائنات وينقذ القرون الخالية والآتية من الظلمات الدامسة.

ولقد كان الشيخ بديع الزمان سعيد النورسى فى هذه النقطة، بليغاً أقصى درجات البلاغة.

ويعلم الله أننى وقفت طويلاً أتأمل هذه الحكمة، التى انطلقت لتؤكد صلة المؤمن بالكائنات والوجود، وتبين فى وضوح أن الوجود كله عابد بطبيعته، منصاع لوظيفته.. لا يسعه إلا أن يطيع ربه فى ولاء، لا يشوبه استنكاف، ولا يطاوله تأب.. بل إنه جميعاً من أعلاه إلى أسفله، يهتف فى البداية، من عالم الأزل، بلغة المقهور، أمام عظمة القاهر، وهتاف العابد، تجاه قدسية المعبود، بما سجله الحق فى قوله ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (فصلت: ١١).

والإنسان وإن كان يساوق الكون فى العبادة بفطرته - فإنه ينبغى عليه - وهو منه بمثابة السيد أن يفوقه فى العبادة منزلة، وأن يعلوه فيها درجات تتناسب، وتركيبه وتكوينه المتميز بالعقل، والإرادة، والاختيار، والميول، والنزعات، والرغائب. وأن يكون لهذه العبادة الاختيارية القائمة على الإيمان نمطها الخاص الذى يواكب الفطرة، ويقبل الحركة والترقى.

بيد أن الإنسان من طبعه أن ينسى أحياناً، وأن يغفل، وأن يجحد أحيانـاً، وأن يكفر.. فكـان جديـراً بمكانتـه مـن ربـه أن يذكـره اللـه بحقـه عليـه، فـى الطاعـة والعبادة، وأن يأخذ عليه بذلك العهد والميثاق منذ الأزل، وأن تكون تلـك العبـادة وإلى الأبد، حق اللـه على عباده، ووصيته إلى خلقه. جاء بها إلى كـل نبـى، ودعـا بها كل رسول.

وبهذا السلوك الإيمانى يصبح الإنسان ويمسى وللإيمان أثره فى حياته وتكوينه، وفى شخصه، وفى ذاته، وفى أخلاقه. يقف به من ربه على مكانته، وفـى الكـون على مركزه، وفى المجتمع على موقعه. متفاعلاً مع هذه المجالات. بالتنمية والإثـراء، والأخذ، والعطاء.

إن هذه النقطة التى تبرز صلـة المؤمـن بالكائنـات، ودور المؤمـن فـى الإنقـاذ، والإصلاح، والصلاح.. تجعل سـلوك الفـرد المسـلم، قائمـاً علـى أسـاس الاختيـار اليقظ الواعى، بعيداً عن العادة الآلية، التى تجعل من السلوك، سكوناً رتيباً، لا يعبر عن وعى الإنسان وارتباطه بخالقه.

وكم هو سهل هدم الموقف الإنسانى، والانسحاب من الفعل مهما يكن خيراً وضخماً، عندما ينبى هذا الفعل على أساس من الآلية والاعتياد، بعيداً عن الوعـى، والقناعة، والاتجاه الذاتى اليقظ.

لذلك جاءت كليات رسائل النور للإمام بديع الزمان. تحرص فى نقاطها على تثبيت قواعد الفعل، فى أعماق الذات الإنسانية. وكأن الإمام بديع الزمان يريد أن يضمن استمرار الإنسان المسلم على فعل الخير، وبناء الحياة الإنسـانية علـى أسـس من الوعى، والإخلاص، وبمنأى عن النفاق، والرياء، والاحتيال.

– **والنقطة الثالثة** من نقاط محاسن الإيمان أن الإيمان نـور، وهـو قـوة أيضـاً فالإنسان الذى يظفر بالإيمان الحقيقى، يسـتطيع أن يتحـدى الكائنـات، ويتخلـص من تضيقات الحوادث، مستنداً إلى قوة إيمانه. فيبحر متفرجاً، علـى سـفينة الحيـاة،

فى خضم أمواج الأحداث العاتية، بكمال الأمان، والسلام. قـائلاً: توكلـت علـى اللـه.. فالإيمان إذا يقتضى التوحيد، والتوحيد يقـود إلى التسـليم ، والتسـليم يحقـق التوكل، والتوكل يسهل الطريق إلى سعادة الدارين.

ولا تظنن أن التوكل هو رفض الأسباب وردهـا كليـاً، وإنمـا هـو عبـارة عـن العلم بأن الأسباب هى حجب بيد القدرة الإلهية، ينبغـى رعايتهـا ومدارتهـا. أمـا التشبت بها أو الأخذ بها، فهو نوع من الدعاء الفعلى، ومن ثم فطلب المسـببات، وترقب النتائج، لا يكون إلا من الحق سبحانه وتعالى.

وإن المتأمل أبعاداً وأعماقاً، فيما ذكره الإمام بديع الزمـان فـى النقطـة الثالثـة، من نقاط محاسن الإيمان، يرى أنـه أمـام نقـاط تقـود الإنسـان إلى الطريـق السـليم، ويتبين له بوضوح حرص الإمام بديع الزمان علـى سـلامة صـدور المؤمنـين.. فـإن أبرز ما يرتفع بقيمة الإنسان، هو إيمانـه بربـه، ومعرفتـه بـه ولا يصـل الإنسـان إلى كمال الإيمان إلا إذا أيقن: أن اللـه وحده هو مصدر العطاء والمنح لهذا الوجود.

ولا يتكامل هذا الإيمان فـى جنـان صحابـه، إلا إذا علـم علـم اليقـين أن اللـه وحده هو كل شئ، المتفرد على سائر خلقه بالحياة الأزلية، والبقاء، والوجود. وأن ما عداه ليس سوى أعراض تستمد قيمتها، وحيويتها، وكيانها من إشعاع جلالـه، وشمول قيوميته.

والإنسان لابد له من إدراك هـذه الحقيقـة، والإيمـان بهـا، والعمـل بمقتضاهـا، بحيث تنعكس بكل إشراقها عليه، فى كل ما يـأتى ومـا يـذر.. يعتمـد علـى ربـه، ويستمد منه العون.

الإيمان – كما يقول بديع الزمان – يقتضى التوحيد:
والتوحيد يقود إلى التسليم
والتسليم يحقق التوكل
والتوكل يسهل الطريق إلى سعادة الدارين..

نعم الإيمان يقتضى التوحيد.. لأن الإيمــان الحــق يطبـع أصحابـه بطـابع الصلـة القوية باللـه، ويمنحهم طاقات من الثقة فيه لا مثيل لها، ويصب فى وجداناتهم من دفقات اليقين ما يعلو فوق الريب.

والتوحيد يقود إلى التسليم، والتسليم يحقق التوكل، لأن التوكـل أحـد شـعب الإيمان وموجباته، وأحد خصائصه، ومنحه ومعطياته، به تتجـدد الثقـة بـين الخلـق والخالق، وتتوثق الصلة بين أهل الأرض وخالق الوجود.

إن التوكل من خـير صفـات الإيمـان التـى يتصـف بهـا المؤمنـون، حيـث بهـا يستعلى المؤمن على كل هون، ويتأبى على كل ضيم، ويقف قلعة شمـاء فـى وجـه الأهواء، وصخرة عاتية لا يلين مع الهوى، ولا يتأثر بأى إغواء أو غواية. ولا يـرى على نفسه سلطانا غير سلطان اللـه.

ولا شك أن التسليم يحقق التوكل على اللـه تعالى حيث يعتمد الإنسان علـى اللـه سبحانه وتعالى، ويفوض الأمور كلها إليه تعالى بقلبه، اعتماداً على أنه الكفيل بأمور عباده.

ودعوة الإمام بديع الزمان إلى التسليم الذى يحقق التوكـل، دعـوة إلى كـل مـا ينهض بالمسلمين، ويربطهم بأسباب الثقــة، والعـزة، والسـعادة، فـى شـتى نواحـى الحياة.

والتوكل برهان إيمان الأمة، وآية إسلامها، ومنطق عرفانها بربهـا، وتوحيدهـا لخالقها، الذى تلوذ به، وتلجأ إليه، وتعتصـم بـه، وتتوكـل عليـه ﴿ وَمَـنْ يَعْتَصِـمْ بِاللـه فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (آل عمران: ١٠١).

والدعـوة إلى التوكـل علـى اللــه، دعـوة إلى مزاولـة الحـق، واسـتبطان الثقــة، وممارسة الكمال، ومباشرة أعمال الحق، وشئون الخير، فى سمو، وإباء، ورفعة.

وإن المتأمل فيما جاء عن الإمام بديـع الزمـان فـى النقطـة الثالثـة يصـل إلى أن بديع الزمان كان حكيماً والحكمة تقتضى بصراً بالأمور، ودقة فى الإدراك، وأنــاة

في التفكير... وحكمة الحكيم هنا نفت أن يكون مفهوم التوكل فى الإسلام يقتضى رفض الأسباب وردها كلياً، وإنما هو عبارة عن العلم بأن الأسباب هى حجب بيد القدرة الإلهية. روى الترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً" رواه الترمذى.

فالمؤمن المتوكل يؤمن تماماً أنه بدون الله، لا حول له ولا قوة، بل ولن يكون له كيان ولا وجود، وأن المسببات وأسبابها، والمقدمات ونتائجها من خلقه، وطوع أمره، ورهن إشارته.

وليس على المرء إلا أن يباشر الأسباب، وأن يتعامل مع الوسائل. تاركاً غاياتها وأهدافها إلى صاحب القوى والقدر، موقنا بكفاية الله له، وكفالته إياه.

فمن كمال الإيمان أن يتوكل المؤمن على ربه، ويلوذ به، ويلجأ إليه. بحيث يستمد من هذا التوكل عدته، وعتاده، وعزيمته، وزاده. يواجه به الشدائد، ويصارع به الصعاب، ويمنحه من الطاقة المتجددة، ما يستعلى بها على نوازع النفس، وسلطان الهوى.

قال تعالى فى سورة الأنفال ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الأنفال:٢).

ويذكر العلماء: أنه لما كان من المعلوم من الشرع، والطبع، والعقل، بالضرورة أن للإنسان كسباً اختيارياً - كلفه الله العمل به وأنه يؤمن بأنه يجازى على عمله، إن خيراً فخير. وإن شراً فشر - وجب على الإنسان أن يسعى فى تدبير أمور نفسه، بحسب ما علمه من سنن الله تعالى، فى نظام الأسباب وارتباطها بالمسببات، معتقداً أن الأسباب لم تكن أسباباً إلا بتسخير الله تعالى، وأن ما يناله باستعمالها، فهو من فضل ربه، الذى سخرها، وجعلها أسباباً، وعلمه ذلك.

وأما ما لا يعرف له سبب يطلب به، فالمؤمن يتوكل فيه على الله وحده، وإليه يتوجه، وإياه يدنو فيما يطلب منه.

وأما ترك الأسباب، وتنكب سنن الله تعالى فى الخلق، وتسمية ذلك توكلاً، فهو جهل بالله، وجهل بدينه، وجهل بسننه، التى أخبرنا بأنها لا تتبدل، ولا تتحول (تفسير المنار).

وإذا انتقلت إلى **النقطة الرابعة،** من نقاط محاسن الإيمان، وجدت فيضاً يؤكد أن الإيمان يجعل الإنسان إنساناً حقاً، بل يجعله سلطاناً، لذا كانت وظيفته الأساسية: "الإيمان بالله تعالى والدعاء إليه" بينما الكفر يجعل الإنسان حيواناً مفترساً فى غاية العجز.

ويذكر الإمام بديع الزمان دليلاً واضحاً، وبرهاناً قاطعاً، من بين آلاف الدلائل على هذه المسألة، وهى التفاوت والفروق، بين مجىء الإنسان إلى دار الدنيا.

وقبل أن أذكر الدليل الذى فاض به الشيخ بديع الزمان، أقرر أننى وقفت طويلاً متتلمذاً على هذا الحكيم، الذى يسعى إلى ترسيخ الإيمان، وبيان اكتمال الإنسانية الذى لن يكون بغير الإيمان.

يقول الإمام بديع الزمان فى هذا الدليل: "نعم إن التفاوت بين مجىء الحيوان والإنسان إلى هذه الدنيا، يدل على أن اكتمال الإنسانية وارتقاءها إلى الإنسانية الحقة، إنما هو بالإيمان وحده.

وذلك لأن الحيوان حينما يأتى إلى الدنيا، يأتى إليها كأنه قد اكتمل فى عالم آخر، فيرسل إليها متكاملاً، حسب استعداده.. فيتعلم فى ظرف ساعتين أو يومين أو شهرين جميع شرائط حياته، وعلاقاته بالكائنات الأخرى، وقوانين حياته. فتحصل لديه ملكة.. فيتعلم العصفور أو النملة - مثلاً - القدرة الحياتية والسلوك

العملى، عن طريق الإلهام الربانى، وهدايته سبحانه. ويحصل فى عشرين يوماً على ما لا يتعلمه الإنسان إلا فى عشرين سنة.

إذا الوظيفة الأساسية للحيوان، ليست التكمل والاكتمال بالتعلم، ولا الترقى بكسب العلم والمعرفة. ولا الاستعانة والدعاء بإظهار العجز.. وإنما وظيفته الأصلية: القيام بالعمل حسب استعداده، أى العبودية الفعلية..

أما الإنسان فعلى العكس من ذلك تماماً، فهو عندما يقدم إلى الدنيا، يقدمها وهو محتاج إلى تعلم كل شئ وإدراكه، إذ هو جاهل بقوانين الحياة كافة جهلاً مطبقاً، حتى أنه قد لا يستوعب شرائط حياته خلال عشرين سنة.. بل قد يبقى محتاجاً إلى التعلم والتفهم مدى عمره.

فضلاً عن أنه يبعث إلى الحياة وهو فى غاية الضعف والعجز، حتى أنه لا يتمكن من القيام منتصباً إلا بعد سنتين من عمره، ولا يكاد يميز النفع من الضر إلا بعد خمس عشرة سنة، ولا يمكنه أن يحقق لنفسه منافع حياته ومصالحها، ولا دفع الضرر عنها إلا بالتعاون والانخراط فى الحياة الاجتماعية البشرية.

والنتيجة الضرورية التى يستخلصها الشيخ بديع الزمان: أن وظيفة الإنسان الفطرية إنما هى التكمل "بالتعلم" أى الترقى، عن طريق كسب العلم، والمعرفة، والعبودية "بالدعاء".

أى أن يدرك فى نفسه ويستفسر:

- برحمة مَن وشفقته. اداري بهذه الرعاية الحكيمة ؟.
- وبمكرمة من وسخائه. أربى هذه التربية المفعمة بالشفقة والرحمة ؟
- وبألطاف من وجوده. أغذى بهذه الصورة الرازقة الرقيقة ؟.

فيرى أن وظيفته حقاً هو الدعاء، والتضرع، والتوسل، والرجاء بلسان الفقر، والعجز، إلى قاضى الحاجات.

إذن. فلقد جيء بهذا الإنسان إلى هذا العالم، لأجل أن يتكامل بالمعرفة، والدعاء. لأن كل شيء فيه موجه إلى العلم،ومتعلق بالمعرفة، حسب الماهية والاستعداد، وإذا كان الله قد اختص الإنسان بالتكريم، وجعله مكلفاً ومسئولاً، فإنه من ناحية أخرى قد خلق الله له هذا الكون بما فيه ليمارس فيه نشاطاته المادية والروحية على السواء. يقول الله تعالى فى سورة الجاثية ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية: ١٣).

والتفكير الذى تنص عليه الآية هنا أمر جوهرى، لا ينبغى أن يغيب عن الأذهان فإنه إذا كان الله قد سخر للإنسان هذا الكون، فلا يجوز له أن يقف منه موقف اللامبالاة، بل ينبغى عليه أن يتخذ لنفسه منه موقفاً إيجابياً. وإيجابيته تتمثل فى درسه، والنظر فيه للاستفادة منه، بما يعود على البشرية بالخير.

والاستفادة من كل هذه المسخرات فى هذا الكون، لا تكون إلا بالعلم، والدراسة، والفهم.

أما النقطة الخامسة: من نقاط محاسن الإيمان. فإن الشيخ بديع الزمان يقول فيها: "كما أن الإيمان يقتضى الدعاء، ويتخذه وسيلة قاطعة، ووساطة بين المؤمن وربه، وكما أن الفطرة الإنسانية تتلهف إليه بشدة وشوق، فإن الله سبحانه وتعالى، يدعو الإنسان إلى الأمر نفسه. بقوله ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ﴾ وبقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾.

ولا يخفى على باحث أو دارس، أن هذه النقطة تتصل بالنقطة الرابعة من نقاط محاسن الإيمان، وترتبط بها ارتباطاً وثيقاً، فالعلاقة بين الإيمان والدعاء علاقة لا انقطاع فيها، لأن الدعاء تعبير طبيعى عن إحساس نفسى، وشعور حى لدى الإنسان الذى يدرك:

- وجود الله سبحانه وتعالى.

- ووجود نفسه.
- وجود الله الذى هو مصدر الغنى والكمال والإفاضة فى هذا العالم.
- ووجود الإنسان الذى هو وعاء الفقر، والحاجة، والمسكنة، المتقوّم بالإفاضة والعطاء المستمر.

فهذا التصور للعلاقة الحقيقة بين الوجودين:

- وجود إلهى. هو المبدأ والمصدر فى إيجاد الإنسان، وإفاضة الخير، والرحمة عليه.

- ووجود إنسانى صادر عن ذلك المبدأ، ومتعلق به، ومتوقف عليه، ومتوجه نحوه دوماً لطلب الإفاضات، والكمالات، التى تسد نقص الوجود والإنسانى.

أن هذا التصور هو الذى يفرض هذه العلاقة، وينتج هذا الشعور الذى يقود إلى توجه النفس البشرية إلى مبدئها الذى يهبها ويمنحها ما يوفر لها كمالها، ويحفظ وجودها. ويسد فقرها.

والمؤمن بالله سبحانه وتعالى، يعرف مصدر توجهه، ومبدأ حياته. وهو الله سبحانه. فيتوجه إليه بروح مؤمنة، مملوءة بالأمل، والثقة، والرجاء، فى حين يظل نقيضه الكافر بالله، يعيش حالة من الحيرة والضياع، والبحث غير المجدى وهو يعيش الإحساس ذاته، ولكن لا يدرى إلى أين يتوجه، لا يعرف الجهة التى يبثها هذا الإحساس والألم. ولا يستطيع اكتشاف الرحمة والحنان، الذى يغمر عوالم الوجود، ويتسع للتجاوب مع هذا الإحساس.

لذلك فهو يحمل هذا الإحساس بين جنبيه: وخزات تباعد بينه وبين الاستقرار، والطمأنينة، ويأساً يسد أمامه منافذ الرجاء، والخلاص.

فالدعاء هو من مقتضيات الإيمان بالله، لأنه وسيلة لربط الإنسان بالله، والتوجه إليه، والاعتراف بين يديه، وإظهار حاجة الإنسان وفقره، وضراعته، ورغبته فى إصلاح نفسه، وانتعاش حياته.

وإذا كان الدعاء هو من مقتضيات الإيمان بالله - كما أشار إلى ذلك الشيخ بديع الزمان - فإن الفطرة الإنسانية - كما يقرر بديع الزمان - تتلهف إليه بشدة وشوق، لأن الإحساس بالحاجة، والشعور بالحيرة، والرغبة فى التوجه إلى قوة تساعد على الإنقاذ والخلاص. إحساس بشرى عام.

فما من إنسان إلا وينتابه العجز والحيرة، ويشعر بالضيق، ويحس بالحاجة إلى قوة تسعفه، وتنقذه من محنته، وحيرته، وتقطع يأسه، وشعوره بالعجز، والضياع فى هذا العالم.

والنفس البشرية، ذات الأبعاد المختلفة، والأعماق، والأغوار المعقدة الغامضة.. لا يمكن ملؤها بالحاجات المادية وحدها، مهما يغالى الإنسان فى الإشباع المادى.

والإنسان بطبيعة تكوينه، وحقيقة وجوده، يتعرض فى حياته لمشاكل، ونكبات وآلام، وإحساس بالخيبة، وقصور عن الأهداف.

فليس كل شئ فى الحياة يتحقق للإنسان كما يريد، ولا كل شئ يجرى وفق مشيئته، وبذا تبقى الحاجة قائمة، والرغبة غير مشبعة، والشعور بالحاجة متعاظماً فى نفس الإنسان.

وتلك حكمة الله الخبير.. جعل كل ذلك ليبقى الإنسان مرتبطاً بخالقه، متوجهاً إليه.

ومن اللفتات التى لفت إليها بديع الزمان فى الدعاء. قوله: "إن استجابة الدعاء شئ وقبوله شئ آخر. فكل دعاء مستجاب، إلا أن قبوله وتنفيذ المطلوب نفسه منوط بحكمة الله سبحانه..".

والدعاء ضرب من العبودية، والعبودية لابد أن تكون خالصة لوجه الله بأن يأوى الإنسان إلى ربه بالدعاء.

فالدعاء عبادة يتعبد بها المسلم، ويتقرب بها إلى اللـه سبحانه.

والدعاء تعبير عن إيمان المسلم، وإقراره بأن اللـه هو خالق كل شئ.

وتلك نقاط محاسن الإيمان، التى اختارها الإمام بديـع الزمـان سـعيد النورسـى من بين آلاف المحاسن، لتكون علامات مشرقة.

والشيخ بديع الزمان اختارها من بين آلاف المحاسـن لتكـون حقـائق المحاسـن، دافعة للإنسان المسلم إلى أن ينطلـق، وهـو مسـوق بقيـم ومواريـث لهـا فـى وعيـه فاعليتها القوية.



الحقائق الإيمانية والعقائد الإسلامية

مما يحسن أن أشير إليه، أننى وقفت طويلاً، أبحث عن عنوان لهذا المحور، الذى يتناول العقائد الإسلامية. وكلما وضعت عنواناً، بدا لى أن فيه قصور، وغيره أفضل منه. وشاء الله سبحانه وتعالى أن تقع عيناى على كلام للإمام بديع الزمان سعيد. يقول فيه: "إنى أخال أن لو كان الشيخ عبد القادر الكيلانى، والشيخ النقشبندى، والإمام الربانى. وأمثالهم، من أقطاب الإيمان، رضوان الله عليهم أجمعين.. أجل لو كان هؤلاء فى عصرنا هذا، لبذلوا كل ما فى وسعهم لتقوية: "الحقائق الإيمانية والعقائد الإسلامية". ذلك لأن منشأ السعادة الأبدية فيهما، وإن أى تقصير مهما كان فيهما يعنى الشقاء الأبدى، إذ لا يمكن الدخول إلى الجنة دون إيمان".

وما أن انتهيت من التأمل فى هذا الكلام. حتى وجدت نفسى أمام العنوان الذى يصلح ويكاد أن يكون واضحاً..أن القرآن الكريم دعا بإلحاح، إلى الإيمان بالحياة الاخرة، التى تتجلى فيها مسئولية الإنسان، ويتحدد مصيره الأبدى.. ودعا إلى الإيمان بالحقائق الكبرى.. دعا إلى الإيمان بالله، خالق الكون.. ودعا إلى الإيمان بالحياة الآخرة، التى تتجلى فيها مسئولية الإنسان، ويتحدد مصيره الأبدى.. ودعا إلى الإيمان بالنبوة والوحى طريقاً إلى معرفة الحقائق التى يريد الله أن يلقيها إلى الإنسان، سواء كان موضوعها عالم الغيب،أو حقائق ما وراء المادة. أما كان توجيه الإنسان، وتنظيم شئونه فى هذه الحياة.

ومما لا يخفى على الإنسان.. أن هناك نوعاً آخر من الحقائق، اشتمل عليها القرآن الكريم، وردت فيه على أنها طريق إلى الحقائق الأساسية – من الإيمان بالله، وبالحياة الآخرة، وبالنبوة، والوحى – ووسيلة للوصول إليها. ولكنها تتكرر فى سور القرآن، وفى أشكال شتى، مرافقة للحقائق الأساسية، لتأييدها ودعمها.

ويشتمل هذا النوع على مشاهد الكون فى القرآن بآفاقه الواسعة، وأنواع مخلوقاته المختلفة، وحوادثه المتبدلة، وسننه المطردة. ويشتمل بوجه خاص على حياة الإنسان فى خلقه وتكوينه وميوله، وغرائزه، فى أجياله المتعاقبة.

والباحث والدارس لمجموعة المقالات من كليات رسائل النور، للإمام العلامة بديع الزمان سعيد النورسى، يلحظ بوضوح أن العلامة بديع الزمان، تناول هذه الحقائق تناولاً يؤدى إلى معرفة الله والإيمان به.

وترى ذلك واضحاً فى المقالة الثانية من مجموعة المقالات الكبرى، والتى تفسر سراً مهما من أسرار آية (والذين يؤمنون بالغيب).

- كما ترى ذلك فى الإشارة الأولى من المقدمة التى تثبت وجود صانع العالم بوجه بديع.
- وترى ذلك أيضاً فى الإشارة الثانية التى تثبت الرسالة الأحمدية، بعدة من وظائف الرسالة.
- وترى ذلك فى الحقيقة الثانية عشرة: باب الرسالة والتنزيل، وجلوة "بسم الله الرحمن الرحيم".
- وترى ذلك واضحاً فى الخاتمة التى تثبت سهولة الحشر الأعظم.
- وترى ذلك فى الرشحة الثانية عشرة. إنه برهان قاطع، ودليل ساطع لوجود الآخرة كما أنه برهان ناطق، ودليل صادق، على وجود الخالق.
- وترى ذلك فى المقالة الثانية والعشرين، مما يتصل بالتوحيد.
- وترى ذلك فى المقالة التاسعة والعشرين، من موازين رسائل النور.
- وترى ذلك واضحاً فى مناحى كثيرة، ومواقف متعددة، مما صنفه العلامة بديع الزمان سعيد النورسى.

مما يؤكد لك:

- نظرة الإسلام إلى الموجود: وجود الخالق.. ووجود العالم المخلوق: الكون والإنسان.
- ونظرة الإسلام إلى الصلة بين الله والكون، وبين الله والإنسان، وبين الكون والإنسان.

ويتكون من مجموع ذلك: عقيدة كاملة، ونظرة شاملة.

وهذه العقيدة لا تتطلب تجربة كبيرة للإيمان، ولا تثير فى العادة مصاعب عقلية خاصة.

فالتصور الإسلامى يقوم على أساس: أن هناك ألوهية وعبودية.

ألوهية ينفرد بها الله سبحانه.

وعبودية يشترك فيها كل ما عداه، وكل من عداه.

وكما ينفرد الله سبحانه بالألوهية، كذلك ينفرد - تبعاً لذلك - بكل خصائص الألوهية.

وكما يشترك كل حى، وكل شئ بعد ذلك فى العبودية، كذلك يتجرد كل حى من خصائص الألوهية.

فهناك إذن وجودان متميزان:

- وجود الله.

- ووجود ما عداه من عبيد الله.

والعلاقة بين الوجودين هى علاقة الخالق بالمخلوق، والإله بالعبيد.

وإذا كان الأمر - كما ذكرت - فما مكان الإنسان ؟ لا جواب على هذا السؤال غير عقيدة دينية، تجمع للإنسان صفوة عرفانه بدنياه، وصفوة إيمانه بأخراه، تجمع له زبدة الثقة بعقله، وزبدة الثقة بالحياة، وحياة سائر الأحياء والأكوان.

إن العلامة الشيخ بديع الزمان، يخص بالحقائق الإيمانية الإنسان. ويخص بالمخاطبة المسلم، لأنه هو المقصود ويريد فى الوقت نفسه أن يشعره بموقعه من هذا الكون.

فالإنسان أولاً: نوع من أنواع أخرى فى هذا الكون، يشترك معها فى أمور، ثم يتميز عنها.

والإنسان ثانياً: نوع من أنواع الحيوانات، يدخل فى تصنيفها، ويشترك معها فى أمور. قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاء فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ﴾ (النور: ٤٥).

والإنسان ثالثاً: نوع متميز عن الحيوان.

والإنسان رابعاً: يتميز بجانب روحى، وهو الجانب الذى رفع مرتبة الإنسان وجعله فى مقام التكريم.

ولهذا يخاطب بديع الزمان الإنسان قائلاً له: "إن كنت تروم الحصول على علم الحقيقية والحكمة الحقة فاظفر بمعرفة اللـه، إذ حقائق الموجودات كلها إنما هى شعاعات اسم اللـه الحق، ومظاهر أسمائه الحسنى، وتجليات صفاته الجليلة..".

وبنظرة تدبر وتفكر فى خلق اللـه سبحانه، وما اشتمل عليه من عظمة وجلال، وما قام عليه من أسس وقوانين، هى من الدقة، والتنسيق، والتنظيم بحيث عجز المفكرون عن إدراك كنهها، ووقفوا مشدوهين أمام كمالها.

بهذه النظرة المجردة من الهوى والتضليل، يدرك الإنسان أن اللـه سبحانه وتعالى هو الذى أعطى كل شئ خلقه، ودبر فى الكون كل ذرة. وأنه وحده الذى يستحق أن تصفوا له الوجوه، وتخر له الرءوس ساجدة، وينقاد له الخلق معظمين .

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ١٦٤).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّا تُصْرَفُونَ ﴾ (يونس: ٣١، ٣٢)

وقال تعالى: ﴿ ومن آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآَيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الروم: ٢٦-٢٧)

ولكن قصة البشرية مع الخالق جل وعلا فيها مساوئ كثيرة، زلت فيها أقدام البشر، وضلت عقولهم، وأضلوا من تابعهم.. وكثيراً ما يلغى الناس عقولهم، ويرضون بإهدار كرامتهم، فيقلدون تقليداً أعمى أشخاصاً علت مناصبهم، فاستعلوا بها على ربهم، أو كثرت أموالهم، فأعمتهم المادة عن رؤية جمال ما فى الحياة.

ويقول العلامة زبير كوندوز آلب أحد تلاميذ الأستاذ النورسى المخلصين: إن أعداء الدين يهدفون أول ما يهدفون فى وسائلهم، إلى تهوين أركان الإيمان، وإضعافها فى النفوس، ومن ثم القيام بهدمها وإزالتها.

إذ من المعلوم أن سريان شبهة واحدة، فى أحد أركان الإيمان، أو إنكاراً جزئية فيه لهى أخطر بكثير وأفدح من إهمال يقع فى الأمور الفرعية فى الدين: تقوية الإيمان فى القلوب، وترسيخه فى النفوس. وذلك بتحويله من إيمان تقليدى خامد إلى إيمان تحقيقى ينبض بالحيوية.. فتقوية الإيمان هى فى مقدمة المستلزمات الآتية، وإنقاذ الإيمان هو من أولى الواجبات والمهمات".

فالحقائق الإيمانية، والعقائد الإيمانية، تزود المؤمن بمضادات ذات قيم فعالة تعالج ما قد يبتلى به من إصابات سلوكية.

وقد حرص العلامة الشيخ بديع الزمان على إبراز هذه الحقائق، وإعطاء ما تستحق. لأنها:

- تربط الإنسان بالله، وبقوى الكون الظاهرة والخافية.
- ولأنها تبث الثقة، والطمأنينة فى الإنسان، وتمنحه القوة لمواجهة القوى الإلحادية والأوضاع الباطلة.
- ولأنها توضح للإنسان غايته واتجاهه وطريقه.
- ولأنها تجمع للإنسان طاقاته وقواه، وتدفعها فى اتجاه الغاية.
- ولأنها تقدم للإنسان الحل لمشكلاته جميعها.
- ولأنها تتسع لكل أنواع النشاط الإنسانى، وتربط بين المادة والروح.
- ولأنها كفيلة بتعديل القيم والموازن، وتعديل الحكم والتقدير، وتعديل المنهج والسلوك، وتعديل الوسائل والأسباب.

هذه الحقائق يكفي أن تستقر فى قلب المؤمن لتقف به أمام الدنيا كلها بمن فيها، وما فيها.. عزيزاً، كريماً.

والحقائق الإيمانية - عند الشيخ بديع الزمان - كما وضحت من "رسائل النور "تساهم مساهمة فعالة، فى بناء الإنسان المؤمن، وترسخ عنده القيم، لأنها تشكل النظرة التفسيرية للحياة والوجود، فتسلك كأساس لتصور الإنسان للمواقف، والسلوك، والعلاقات. وكمنطلق للتقويم، وإصدار الأحكام على الأشياء، وفهمها.

وليس فى عالم المعتقدات عقيدة كعقيدة التوحيد - الإيمان بالله - من حيث سعتها، وشمولها، وانطباعها على كل موقف وسلوك إنسانى، حتى لتسلك هذه العقيدة "الإيمان بالله" وما يتفرع عنه، كرائد يخطط للإنسان طريق السير، وقائد يتقدم المسيرة، ومحور تدور عليه كل نشاطات الإنسان.



الدعوة إلى الإيمان

إن الإمام بديع الزمان سعيد النورسى اهتم بمحاسن الإيمان، والحقائق الإيمانية، اهتماماً بالغاً، لأن الإيمان بالله هو أساس كل تقدم، كما هو أساس كل مواجهة للتحديات.

وأثبت التاريخ أن الذين تربوا فى مدارس الإيمان، وأشربوا تعاليم السماء، هم الذين وحدهم الذين صلحت بهم الحياة، واعتدل فى أيديهم ميزان الحق والعدل، وانكشفت بسبب وجودهم، ونقاء أخلاقهم: أساليب الوضاعة، والخيانة، والغدر.

إن هذه المعانى التى أثبتها التاريخ، كانت ماثلة أمام الإمام الشيخ بديع الزمان، وهو يسعى فى رسائله إلى إيجاد خصائص ومقومات، يتقوم بها محتوى الذات واتجاهها.

ولذلك عمل على أن يقدم للأمة الإسلامية كل ما من شأنه أن يأخذ بالمسلمين إلى الطريق.

يريد أن ترى المجتمعات الإسلامية نمطاً جديداً من الناس يعطى من نفسه ليسعد غيره ويرضى بالهلاك لذاته كى تحيا وتنهض أمته.

وهذا مؤمن آل فرعون يقف وحده، فى معارضة الباطل، والظلم، والفساد فيقول لقومه وقد تشاوروا فى قتل موسى عليه السلام: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ غافر: ٢٨.

ثم ينتقل مؤمن آل فرعون من موقف الدفاع عن الفرد، إلى قضية أمته كلها، فيبدى مخاوفه، وينصح قومه، ويحذر من العاقبة فى أسلوب لين مهذب: ﴿ يَاقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾.

ولكن مؤمن آل فرعون وجد القوم تحجرت مشاعرهم، وأعمتهم مناصبهم، وأنساهم آلام الآخرين: صلف قاتل، وغرور. وكان حكيماً رشيداً فى أسلوب

دعوته شجاعاً فى موقفه، ثابتاً على مبدئه، فصارحهم بأمره، وانحاز عنهم بدينه. ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾

﴿ يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

﴿ وَيَاقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴾.

﴿ لاَ جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾.

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ (غافر :٣٨-٤٥).

إن منطلق المؤمن الثابت الشجاع: نور يسرى، وشعاع يهدى، وتاريخ مشرف للإنسانية.

وأريد منك أيها المتأمل فى هذا الموقف. موقف مؤمن آل فرعون. أن تنظر بعين الاعتبار إلى موقف آخر يقول فيه الشيخ بديع الزمان سعيد النورسى: "إخوانى الصادقين الأوفياء، إنه لأجل اطمئنان عوام المؤمنين، وتقبلهم حقائق الإيمان دون تردد يساورهم، يلزم فى الوقت الحاضر وجود معلمين يحملون من الإيثار ما يجعلهم يضحون لا بمنافعهم الدنيوية وحدها، بل بمنافعهم الأخروية أيضاً، فى سبيل منافع أهل الإيمان الأخروية.

فيكون ذلك الدرس الإيمانى خالصاً نقياً، بحيث لا يفكرون فيه بالمنافع الشخصية مهما كانت، بل يسعون فى الخدمة الإيمانية بالحقائق، نيلاً لرضى الله، وعشقاً للحقيقة، وشوقاً إلى الحق والسداد الذى فى الخدمة.

وذلك ليطمئن كل من يحتاج إلى الإيمان اطمئناناً تاماً.

" إن أعظم إحسان أعده فى هذا الزمان وأجل وظيفة، هو إنقاذ الإيمان والسعى لإمداد إيمان الآخرين بالقوة.

فاحذر يا أخى من الأنانية والغرور، وتجنب كل ما يؤدى إليهما. بل ينبغى لأهل الحقيقة فى هذا الزمان التجرد من حظ النفس، ونبذ الغرور والأنانية. وهذا هو الألزم لهم. لأن أعظم خطر يتأتى فى هذا العصر، إنما يتأتى من الأنانية والإعجاب بالنفس. فعلى أهل الحق والحقيقة أن ينظر كل منهم إلى تقصيرات نفسه ويتهمها دائماً، ويتحلى بالتواضع التام.

إن هذه المواقف توضح الوجهة التى يجب أن يتجه نحوها الإنسان، والغاية التى يجب أن يسعى إليها، ويتسابق من أجل الفوز بها، ليركز اتجاهه وغايته فى كل أفعاله ونواياه فى الاتجاه إلى الله.

والدارس لموقف الإمام الشيخ بديع الزمان سعيد النورسى، يجد أن هذه المواقف إيمانية لا تبتغى سوى الإيمان، وترسيخ حقائق الإيمان.. والمواقف الإيمانية لا تنظر إلى "الأنا" . إنما تفكر فى "نحن" أى فى الآخرين، وأمر المؤمنين.

ودعوة الإمام بديع الزمان تنطلق من القرآن الكريم الذى علم الإنسانية أن المؤمنين يعطون لأمتهم، ويتحملون فى سبيل العطاء المصاعب.

وإنك لتهتز روعة وجلالاً لموقف يوسف عليه السلام، وقد هددته امرأة العزيز بالسجن إن لم يسقط ويخلع ثوب الطهارة والعفة، فيقول طالباً حماية خالقه: ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ ﴾ (يوسف:٣٣). ولما دخل السجن قام بدوره كمؤمن يعطف على إخوانه ويبرهم ويعاونهم، ثم يدعوهم إلى عبارة الله وحده. فيقول:

﴿ يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ

إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف: ٣٩، ٤٠).

إن هذه المواقف لا تتأتى إلا من إنسان مؤمن بالله سبحانه وتعالى حق الإيمان. ومن علامة المؤمن:

أنك ترى له قوة في دين، وحزماً فى لين، وإيماناً فى يقين، وحرصاً فى علم، وعلماً فى حلم، وقصداً فى غنى، وخشوعاً فى عبادة، وتجملاً فى فاقة، وصبراً فى شدة، وطلباً فى حلال، ونشاطاً فى هدى، وتحرجاً عن طمع.

يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل، يمسى وهمه الشكر، ويصبح وهمه الذكر، يبيت حذراً، ويصبح فرحاً، حذراً لما حذر من الغفلة، وفرحاً بما أصاب من الفضل والرحمة.

إن استصعبت عليه نفسه فيما تكره، لم يعطها سؤلها فيما تحب.. قرة عينه فيما لا يزول، وزهادته فيما لا يبقى.

نفسه منه فى عناء. والناس منه فى راحة. أتعب نفسه لآخرته، وأراح الناس من نفسه. بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة، ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة.

ولا يفوت الباحث أن يذكر.. أن الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وتستعذب حلاوته الأرواح، فإنه يملك على صاحبه مشاعره، ووجدانه، ويحدد طريقه وآماله.. فلا تستطيع قوى الشر مهما طغت وتجبرت أن تنال من إيمان المؤمنين، وإن نالت من أجسادهم وأموالهم.

عن العباس بن عبدالمطلب رضى الله عنه، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً" [رواه مسلم والترمذى].

وقد لا يخفى أن انطلاقة الإمام الشيخ بديع الزمان من القرآن الكريم، جعلت الرجل قريباً من القلوب والعقول.

ولما كانت لهذا الحكيم معرفته بالنفس الإنسانية، وأنها كالجسم تسعد وتشقى، وتصح وتمرض، وتتسامى وتتسافل، وهى كذلك كالجسم بحاجة إلى وقاية قبل الإصابة، وبحاجة إلى علاج إذا سقطت فريسة الأوبئة التى تنتاب النفوس المظلمة التى فقدت مناعتها.

لما كانت للإمام الشيخ بديع الزمان معرفته بهذا استطاع بثقافته القرآنية، أن يضع رسائل ومصنفات كفيلة باتقاد جذوة الإيمان فى نفس الإنسان المسلم حتى يجوب رياض اليقين وتظل نفسه على نور البصيرة فى الرؤية، الذى لا يعتريه غروب، ويتوفر لديه حضور الوازع الداخلى الذى لا يعقبه غياب.

أدرك الرجل بثقافته القرآنية، وذكائه الحاد أن الإيمان قوة لا تدانيها قوة فى شد الأعصاب، وشحن الخلايا والطاقات، ولهذا أبرز محاسن الإيمان والنتائج التى ترتبت على الالتزام بهذه المحاسن.

قال تعالى: ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (الأنعام: ٨١، ٨٢).

ولا يخفى أن أثر الإيمان يبرز بوضوح فى الدعوات التى غيرت وجه التاريخ، لذا يعمد أصحاب الدعوات إلى اختيار العناصر المؤمنة. ويصرفون نظرهم عن الكثرة فهم لا يريدون "الكم" بل يريدون "الكيف".

والرعيل الأول من المسلمين كانوا أساتذة الدنيا بقوة إيمانهم بربهم، وقد لاقوا آلاماً شديدة، لو صبت على غيرهم لتغير موقفهم، ولكن الإيمان حين يخالط القلوب، يجعل أصحابها قوة.

فبلال الحبشى، وعمار بن ياسر، ومصعب بن عمير، وصهيب الرومى.. ضربوا الرقم القياسى فى صلابة العقيدة، وصدق النية، وقوة الإيمان.

ولقد استطاع الحكيم بديع الزمان أن يجلى الحقائق الإيمانية، والعقائد الإسلامية، لتكون أكثر وضوحاً، وأقرب منهلاً.. فعالج قضايا الإيمان بالله

وبملائكته وكتبه ورسله، كما عرض للوحى والنبوة ورسالة محمد صلى اللـه عليه وسلم. والبعث وأمور الآخرة.. مما مكنه من توضيح الرؤية الحياتية للإنسان، ورسم منهج السلوك، وأسلوب الحياة.

ولا يكون المرء مجانباً للصواب، إذا أدرك أن أشد ما تحتاج إليه الأمة هو: الإيمان.. الإيمان الحقيقى.

الإيمان الذى يفيض بالعطاء على الآخرين.. لأن أعظم وظيفة هى إنقاذ الإيمان، والسعى - كما يقول بديع الزمان - لإمداد إيمان الآخرين بالقوة.

لقد كان أسلوب بديع الزمان - وهو يعرض لحقائق الإيمان - أسلوب ترسيخ وتأكيد، وليس أسلوب عواطف وانفعال. لقد خاطب الرجل العقل والقلب، فوصل إلى القلب والعقل.

ويمكن أن يقال: لماذا اهتم بديع الزمان بالإيمان وقضاياه ؟ والباحث فى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقصة ظهور الإسلام وانتشاره فى الأرض يدرك أن سيرة الرسول صلوات اللـه وسلامه عليه قامت على الإيمان، وللإيمان.. وظهور الإسلام تم على إنطلاق الإيمان، ولنشر الإيمان، وترسيخه بين الناس. ومن هنا ندرك أبعاد اهتمام الحكيم بديع الزمان بالإيمان، وحقائق الإيمان.

ومما هو مؤكد لدى الباحثين: أن العقيدة الإسلامية "الإيمان" كانت فى حياة المسلمين هى النافذة التى يطلون منها على العوالم الحية كما كانت العقيدة ذاتها هى المنظار الذى ترى بواسطته كافة الحقائق.

وأن أمة تخطو فى الطريق، وتسعى إلى المجد لابد وأن تتعلم، وتنتمى إلى الإيمان باللـه.

وأن أمة تحترم علماءها، لابد وأن تأخذ عنهم، وتقتدى بهم.



الوعي الكوني

في فكر النورسي

الإمام بديع الزمان سعيد النورسى علم مـن الأعـلام الذيـن بـرزوا فـى إعطـاء الوعى الكونى ما يستحقه من الاهتمام، لأن الوعى الكونـى طريـق حيـاة وعلامـة مضيئة فى صحائف المعالـم الإسلامية.

لقد كان بديع الزمان سعيد النورسى رجلاً مـن رجـالات الأمـة، ينطلـق مـن مفاهيم الإسلام، ليضئ الطريق أمام السائرين.

لقد كان النورسى مجدداُ للفكر الإسلامى معنياً بما ينمـى فـى الإنسـان الوعـى الثقافى والفكرى والكونى.

وقـد اعتـبر النورسـى الكـون كتـاب، وهـذا الكتـاب يجـد فيـه المؤمـن ضالتـه المنشودة.

يقـول النورسـى فـى كتـاب "الشـعاعات:" والكـون برمتـه كتـاب صمدانـى ينطوى على معانى عميقة غزيرة".

إذن كون اللـه كتاب وعى، لابد للإنسان من أن يعيه، وينظر ما فيه.

وإذا كان المفكر الكبير عباس محمود العقاد يقول: "إن الوعى الكونى المركب فـى طبيعة الإنسان هو مصدر للإيمان بوجود الحقيقة الكبرى التى تحيط بكل موجود".

إذا كان العقاد يقول بهذا فإن الوعى الكونـى فـى فكـر النورسـى ينطلـق مـن الحقيقة الكبرى.

فالإنسان له وعى يقينى بوجوده الخاص وحقيقته الذاتيـة،ولا يخلـو مـن وعـى يقينى بالوجود الأعظم، والحقيقة الكونية، لأن الإنسان متصـل بهـذا الوجـود، بـل قائم عليـه، والوعـى والعقـل لا يتناقضـان، وأن كـان الوعـى أهـم مـن العقـل فـى إدراكه، لأنه مستمد من كيان الإنسان كله ومن ظاهره ومن باطنه.

ومن الملفت فى فكر النورسى أن الوعى الكونى عنده ينطلق من التوحيد، أى من الإيمان باللـه يقول تعالى: ﴿ قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَٰوَا تِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِـي

الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ "يقول فى الشعاعات تحت عنوان" ثمرة التوحيد الثانية":

"إنه بسر التوحيد تتحقق مزايا الكون وكمالاته، وتدرك الوظائف الراقية للموجودات وتتقرر نتيجة خلق المخلوقات".

وقد لا يخفى على باحث: أن فى الكون مجال للوعى الكونى أوسع من مجال الحواس والملكات.

ومادامت الصلة بين الإنسان وبين الكون قائمة، فلابد من دخولها فى نطاق وعى الإنسان على مثال من الأمثلة.

إن الإمام النورسى وهو يعرض للآيات الكونية يمسك بالوعى الكونى. فإذا به قد أقر الحقائق الكونية على أسسها العامة، ووضعها فى موضعها الأصيل.

والباحث فى كليات رسائل النور يجد أن النورسى يقر الموقف الذى يؤمن به، ثم يؤيده بكل ما يستطيع أن يسوقه من الحجج.

ولهذا يمضى الإمام النورسى فى بيان أهمية الوعى الكونى، فيترجم قضايا الكون على قدر حظه من التصور والتصوير.

وينطلق النورسى من القاعدة المقررة التى لا يجوز الشك فيها وهى:

"إن الموجودات أعم من المحسوسات" : كما أن هذا الكون يدل على صانعه ومصدره الذى أوجده، والذى يدبره ويرتبه، فهو كذلك يستدعى لا محالة وجود من يعبر عما فى هذا الكتاب الكبير من معان. ويعلم ويعلم المقاصد الإلهية من وراء خلق الكون، ويعلم الحكم الربانية من تحولاته وتبدلاته، ويدرس نتائج حركاته الوظيفية، ويعلن قيمة ماهيته وكمالات ما فيه من موجودات.

وإذا كانت الفطرة هى منبع الإيمان - إذا سلمت مما يطمسها ويطفئ نورها - فإن النظر فى الكون - كما يرى النورسى - يضاعف فى القلب أنوار الإيمان.

ولا يخفى أن النظر فى كتاب الكون والحياة أمر لا يحسنه كل الناس لأن آيات القدرة الباهرة، والإعجاز فى الصنع والخلق لا يظهران للعين الناظرة، إن لم يكن وراءها فكر نقى، وعقل ذكى.

وإذا كان عباس العقاد يجيب عن السؤال: هل الله موجود ؟ يجيب بأن مسألة وجود الله مسألة وعى قبل كل شئ.

فإن النورسى يعتبر العقيدة هى ترجمان الصلة بين الكون والإنسان، ولابد أن تمتزج هذه الصلة بالوعى والشعور.

فالوعى الكونى فكر النورسى، عمق أصيل، ضارب الجذور فى الثبات. وللإنسان وعى بما فى الكون من جمال، وله وعى بما فيه من نظام، وله وعى بما فيه من أسرار.

وإذا كان بديع الزمان سعيد النورسى، قد أطلق الوعى الكونى فى يقين على كل وعى يتجاوز الآماد المحسوسة، وأن براهين الفلاسفة لإثبات وجود الله لا تغنى عن الوعى الكونى، فإنه يؤكد أن الكون يعلم المقاصد الإلهية من وراء خلق الكون، ويعلم الحكم الربانية من تحولات الكون وتبدلاته.

ومما يلفت النظر أن الإمام بديع الزمان سعيد النورسى، يهتم بإبراز الجمال الكونى فيرى: أن جمال أثر مصنوع يدل دلالة قاطعة على جمال صنعه، وأن جمال الصنع وإتقانه يدل على جمال عنوان صانعه الناشئ من تلك الصنعة ويربط جمال الكون وما عند الإنسان من وعى بجمال الإيمان. فيقول: فإن قابلت ذلك الجمال الباهر بجمال الإيمان، وبجمال العبودية تكن أحسن مخلوق وفى أحسن تقويم".



آفاق المعرفة

فى فكر النورسى

بداية يحسن أن ندرك أن المعرفة هى: إدراك الشىء بتفكر وتدبر. ويرى كثير من العلماء الباحثين:

- أن المعرفة تتعلق بذات الشىء والعلم يتعلق بأحوال الشىء.

- أن المعرفة فى الغالب تكون لما غاب عن القلب بعد إدراكه، فإذا أدركه قيل عرفه "أو تكون لما وصف له بصفات قامت فى نفسه فإذا رآه وعلم أنه الموصوف بها قيل: عرفه.

- أن المعرفة تفيد تمييز المعروف عن غيره.

- أن المعرفة علم يعين الشىء مفصلاً عما سواه.

والمعرفة عند المحققين هى العلم الذى يقوم العالم بموجبه ومقتضاه. فلا يطلقون المعرفة على مدلول العلم وحده، بل لا يصفون بالمعرفة إلا من كان عالماً بالله وبالطريق الموصل إليه وبآفاتها وقواطعها وله حال مع الله يشهد له بالمعرفة.

فالعارف عندهم من عرف الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله، ثم صدق الله فى معاملاته، ثم أخلص له فى قصوره ونياته، ثم انسلخ من أخلاقه الرديئة وآفاته، ثم تطهر من أوساخه وأدرانه ومخالفاته.

ولفظ المعرفة يطلق على مجموعة من المشكلات المعرفية، ذات الصلة الوثيقة بأفكارها هى من قبيل الإدراك، التيقن، التذكر، الإثبات، الحدس. وما جرى مجرى هذا.

وهذه الأفكار هى التى نتجت عنها مذاهب ونظريات.

وقد لا يخفى على أحد من الباحثين أن مذاهب الاعتقاد والتفلسف تنطبع على نحو واضح بطابع مناهجها المعرفية التى تعتمدها وسائل للبحث، وصياغة الموقف.

ولقد اشتد الاتجاه العقلى فى نطاق عام يشمل مجال الطبيعة وعالم الشهادة، ومجال ما وراء الطبيعة، وعالم الغيب، ومجال القيم والأخلاق.

كما اشتد من جهة أخرى الاتجاه المادى فى الحياة العملية فكانت اللذة والمنفعة غاية السعى من الحياة.

وإذا تأملنا الفكر الغربى أعماقاً وأبعاداً وجدنا أنفسنا أمام نظريات شتى من المعرفة لا نظرية واحدة، وأمام عشرات المذاهب والمفاهيم التى نجمت من أعمال العقل والحس باعتبارهما مصدراً أساسياً فى المعرفة.

ولما كان الإمام بديع الزمان سعيد لتنمية النورسى ظهر فى فترة حرجة كانت أحوج ما يكون إلى الإمام سعيد الإحساس بالحياة والقدرة على الوصول إلى كل ما من شأنه أن يرقى بالإنسان. لما كان الأمر - كما ذكرنا أدرك الإمام سعيد النورسى: أن منهج الإسلام تصور مستقل للوجود والحياة يختلف عن مناهج الغرب.

ويكاد أن يكون مؤكداً أن هناك فى الفكر الغربى كما هائلاً من النظريات والمفاهيم التى أنتجها العقل الأوربى وهو عقل بشرى، مثل البراجماتية، والرومانسية، والماركسية، والوضعية المنطقية، والعلمانية، والاشتراكية، والليبرالية، والديمقراطية، وما جرى ويجرى مثل هذا.

على أنه يجدر أن نعرف أن هذه النظريات والأفكار ما جاءت إلا نتيجة محاولات العقل الغربى أن يشرع لنفسه منهجاً فى الحياة بعيداً عن الدين.

ولا يخفى أن التصور السائد لنظرية المعرفة فى الفكر الغربى تصور قائم على أن المعرفة مصدرها: إما العقل، أو الحواس، أو بهما معاً.

وهذا التصور ليس وليد العصر الحديث وإنما هو وليد الفكر الوثنى الإلحادى الذى كان فى العصور القديمة قبل ميلاد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام

والذى كان قائماً على نظريتين أساسيتين همـا: نظريـة العقـل والحس فـى الفكـر اليونانى الهلينى.

ونظرية الحدس والإشراق فى الفكر الغنوصى الشرقى.

ولا يزال الفكر الغربى يباهى بجـذوره الفكريـة والعقديـة التـى كـانت سـائدة لدى الإغريق والرومان وأصبح فى الفكر الغربى فلاسفة تجريبيون واقعيون.

ويرى التجريبيون عدم وجود معرفة حقيقية تتجـاوز الواقـع الحسـى فالأشـياء موجودة فى الواقع بصرف النظر عن وجـود عقـل يدركهـا. ويقـول جـون لـوك: "الأفكار العقلية لا ترقى دليلاً على الوجود - وجود أى شئ - بل هى عبارة عـن مجرد صور للوجود".

أما المذهب البراجماتى العملى: فيرى أن المعرفـة أداة للسـلوك العملـى وأن أى فكرة من أفكارنا هى مجرد خطة للعمل.

ولقـد وصـل الأمـر - كمـا يذكـر البـاحثون - بـالتجريبين والواقعيـين والبراجماتيين إلى إنكار دور العقل وإلى معاداة الميتافيزيقيا والغيبيات، وأسبغوا علـى العلم التجريبى قيمة كبيرة باعتباره وسيلة المعرفة.

ويقف المثاليون العقليون على النقيض من التجريبيـين والواقعيـين فـلا يعـترفون بوجود حقيقة خارج نطاق العقل وأن المعرفة مصدرها العقل.

لقد اشتد من جهة أخرى الاتجاه المادى فى الحياة العملية فكانت اللذة والمنفعة غاية ما وراء الطبيعة وعالم الغيب ومجال الأخلاق والقيم.

ولهذا كانت الضرورة تلح على الباحث أن يهتم بالمعرفة فى فكر بديع الزمـان سعيد النورسى، لا كنظرية مـن النظريـات، كمـا هـى عنـد الفـارابى وابـن سـينا، وأصحاب الفكر العقلى وإنما كقضية أساسـية فـى حيـاة الإنسـان لهـا آثارهـا فـى سلوكه.

يقول بديع الزمان سعيد النورسى فى (الكلمة الثانية والعشرون) من الكلمات: "لا شك أن لهذا العالم العجيب مدبراً يدبر شئونه، ولهذه المملكة البديعة مالكاً يرعاها، ولهذه المدينة الرائعة سيداً يتولى أمورها، ولهذا القصر المنيف صانعاً بديعاً قد أبدعه فأرى لزاماً علينا أن نسعى لمعرفته إذ يبدو أنه هو الذى قد أتى إلى ها هنا وليس أحد غيره فلو لم نعرفه فمن ذا غيره يسعفنا ويغيثنا ويقضى حوائجنا".

فالمعرفة فى فكر بديع الزمان تعتبر ثمرة من ثمرات الإيمان بالله سبحانه وتعالى ونتيجة من أبر نتائج الاستقامة على الدين.

والمعرفة بالله فى فكر بديع الزمان سعيد النورسى تنهض على صفاء القلب ومجاهدة النفس حتى تصل إلى مرتبة من الصفاء تتيح لها ما لا تصل إليه الحواس والعقول معاً.

ولا شك أن الإيمان بالله لا يكون يقيناً ولا حقيقياُ ولا صادقاً ألا إذا بنى وأسس على معرفة بالمعبود جل شأنه.

إلا أنه حين يطمئن قلبه ويستقر على التوحيد ويعترف بلا إله إلا الله مع عقد قلبه على أنه ربه وهو له عبد يكون فى نفس هذا العقد قد أسلم بهذه العبودية لربه.

وبداية المعرفة فى فكر بديع الزمان تجدها فى قوله فى "مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان "ص ٣٧:" أن التوحيد الحقيقى الذى نبحث عنه ونتحراه ليس هو معرفة قائمة على تصور فكرى بل هو تصديق قائم على علم نابع من البراهين وهو أرفع من التصور كما هو فى عالم المنطق.

فالتوحيد الحقيقى إذاً حكم وتصديق وإذعان وقبول بحيث يجد المرء مالكه بكل شئ ويبصر طريقاً إلى ربه الجليل فى كل شئ ولا يحوله شئ عن سكينة قلبه واطمئنانه إلى ربه".

ويقول أيضاً فى "مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان" : "إن معرفة الله سبحانه والإيمان بحقائق لا إله إلا الله يستلزم التصديق القلبى والإيمان المطلق الجازم بربوبيته سبحانه وكلياتها فى قبضته سبحانه، ولا تدار إلا بقدرته وتحت إرادته فلا شريك له فى ملكه".

إذن المعرفة فى فكر بديع الزمان سعيد النورسى تنطلق من الإسلام.

وإذا كانت المعرفة فى فكر بديع الزمان تنطلق من الإسلام فإننا نستطيع أن نقول: أن مصدرها ثلاثى الأبعاد: الوحى المنزل على الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، والعقل الذى غرسه الله فى الإنسان، والتجربة التى تعتمد على معطيات العلم. قال تعالى فى سورة النحل: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وحين نتأمل الآية القرآنية نجد أن القرآن الكريم قد حدد مراحل تفتح الإدراك المعرفى لدى الإنسان فالإنسان يستخدم أولا قدرة السمع ثم ينتقل إلى الأبصار والملاحظة ثم بعد ذلك يرتقى إلى مرحلة الفؤاد أو العقل.

ويذكر العلماء: أن ثمة مرحلتين أساسيتين فى الإدراك المعرفى الإنسانى:

المرحلة الأولى: المرحلة الحسية. وهى التى يرتبط فيها الإنسان بالعالم الواقعى ليستمد منها بإحساساته الموضوعات الملاحظة لينقلها إلى العقل.

والمرحلة الثانية: هى المرحلة العقلية التى تتميز بتنظيم المدركات الحسية والاستنتاج منها.

ولا يخفى أن الإمام بديع الزمان سعيد النورسى يرى أننا طالما نملك أدوات المعرفة فعلينا أن نسعى لمعرفة الله الذى أوجدنا.

يقول بديع الزمان سعيد النورسى فى (مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان): "إن كنت تروم الحصول على علم الحقيقة والحكمة الحقة. فاظفر بمعرفة الله إذ

حقائق الموجودات كلها إنما هى شعاعات اسم اللـه الحق ومظـاهر أسمائـه الحسـنى وتجليات صفاته الجليلة".

ويقول بديع الزمان فـى (المكتـوب العشـرون): "اعلـم يقينـاً أن أسمـى غايـة للخلق وأعظم نتيجة للفطرة الإنسـانية هـو الإيمـان باللـه، واعلـم أن أعلـى مرتبـة للإنسانية وأفضل مقام للبشرية هو معرفة اللـه التى فى ذلك الإيمان".

إن النظرة الفاحصة فيما ذكره الإمام بديع الزمـان سـعيد النورسـى تقـف بنـا على تصور بديع الزمان لأعمال العقل والحس والقلب.. وأن هذه الأعمـال تصـل بالإنسان المؤمن إلى معرفة اللـه".

ولا يخفى أنه فـى إطـار هـذا التصـور قـامت مجهـودات عديـدة مـن مفكريـن مسلمين لبيان مسألة المعرفة.

لقـد أجمـع مفكـرو الإسـلام علـى أن المعرفـة تقـوم علـى الحـواس، والعقـل، والبصيرة، والوحى.. فالكندى يقـول بالمعرفـة الحسـية والعقليـة والبصيريـة وجعـل المعرفة البصيرية أعلى درجات المعرفة لأنها تأتى عن طريق النبوة والوحى.

ويرى الفارابى: أن العقل هو القوة التى تميز الإنسان، لذا فمسألة المعرفة لديـه تحكمها عقول، تتدرج من المحسوس إلى المعقول حتى تصل إلى العقل الفعال، هـذا العقل الفعّال مفارق عن العقول الأخرى المتصلة بالنفس والجسم والمعرفة لا تتم إلا بمساعدة عامل كونى خارجى هو العقل الفعال.

والمعرفة عند ابن سينا تقوم على الفطـرة والمعرفـة بـالفكرة والمعرفـة بـالحدس، ويرى أن أرقى درجات المعرفة هى المعرفة بالحدس.

والعقل هو السمة البارزة عند ابن رشد، إلا أن ابن رشد يعطـى للحـس دوراً فى إدراك الأجسام المركبة مـن المـادة والصـورة، أمـا العقـل فإنـه يـدرك الماهيـات والمعقولات المجردة.

والغزالى يرى أنه لا الحس ولا العقل يوصلنا إلى معرفة حقيقية، وإنما المعرفة الحقيقية تأتى عن طريق القلب.

ويعلن أبو الحسن الأشعرى صراحة: أن العقل ينبغى أن يوضع فى مكانه الحق فمصدر المعرفة هو الوحى والنبوة.

ويؤكد ابن تيمية فى كتابه "درء تعارض العقل والنقل" على أن المعرفة العقلية الصحيحة لا تقع خارج دائرة المعرفة التى يدعو إليها الإسلام.

أما الإمام بديع الزمان سعيد النورسى. فإن المعرفة فى رسائله تقوم على ما فى الإنسان من حواس وعقل وبصيرة وعلى ما جاء به الوحى من عند الله.

والمعرفة لا يعثر عليها فى أعماق النفس البشرية ذاتياً وإنما تأتى اجتهاداً تمثله كلمة "اقرأ" . والتى كانت أول كلمة يسمعها الرسول من وحى السماء، وهذا الاجتهاد لا يقوم به الإنسان مستقلاً وإنما يقوم به باسم الله فهو اجتهاد يستمد مبادئه ووسائله وغاياته من الله.

فالإنسان لم يعثر عليه فى الطبيعة، و لم يصدر عن العلة الأولى بطريق الفيض، ولكن الله هو الذى خلقه وصاحب هذا الخلق جهد بشرى ضئيل مجرد مصاحبة.

وأن الباحث فى موضوع المعرفة فى فكر الإمام بديع الزمان يجد أن بديع الزمان يؤكد على معرفة الله وأنها ضرورة من ضرورات الحياة ولا سعادة بدونها.

ويقول فى المذكرة العاشرة من (مذكرات فى المعرفة الإلهية) من اللمعة السابعة عشر وانظر كذلك المثنوى العربى النورى: (اعلم أن الوصول إلى نور معرفة الحق سبحانه وإلى مشاهدة تجلياته فى مرايا الآيات والشواهد والنظر إليه من مسامات البراهين والدلائل يقتضى إلا تتجسس بأصابع التنقيد على كل نور جرى عليك وورد إلى قلبك وتظاهر إلى عقلك ولا تنقده بيد التردد، فلا تمدن يدك

لأخذ نور أضاء لك بل تجرد من أسباب الغفلة وتعرض لذلك النور وتوجه إليه فإنى قد شاهدت أن شواهد معرفة الله وبراهينها ثلاثة أقسام:

- قسم منها كالماء يرى ويحس ولكن لا يمسك بالأصابع، ففى هذا القسم عليك بالتجرد عن الخيالات والانغماس فيه بكليتك.

- القسم الثانى: كالهواء يحس ولكن لا يرى ولا يتخذ ولا يستمسك، فتوجه لنفحات تلك الرحمة وتعرض لها وقابلها بوجهك وفمك وروحك.

- القسم الثالث: فهو كالنور يرى ولكن لا يحس ولا يؤخذ ولا يستمسك، فتعرض له وقابله ببصيرة قلبك ونظر روحك وتوجه إليه ببصرك".

أن المتأمل فيما ذكره بديع الزمان سعيد النورسى يجد أن الإنسان لم يعثر على المعرفة ولكن الله هو الذى أعطاه إياها، أعطاه بذرتها منذ البداية فى البدهيات أو العلوم الضرورية وصاحب نمو هذه البذرة اجتهاد بشرى مشروط بالاستمداد من الله.

والعلماء هم الذين يتدبرون القرآن والسنة ومن ثم يعرفون الله المعرفة الحقة هم يعرفونه بآثار صنعته، ويدركونه بآثار قدرته، ويستشعرون حقيقة عظمته، برؤية حقيقة إبداعه، ومن ثم يخشونه حقاً بالمعرفة الدقيقة والعلم المباشر.

وهذا هو الطريق إلى العلم الحقيقى والمعرفة الصادقة.

وأن إعمال أدوات المعرفة التى خلقها الله وأودعها فى الإنسان يجب أن تدور فى فلك الشرع.

والشرع هو المصدر الأساسى والمهيمن للمعرفة فكل ما جاء فى القرآن الكريم من أوامر ونواة غير قابلة للحذف، والإضافة، أو التجاهل، والتحايل، أو المماطلة، والتأجيل، والتسويف.

وتقوم المعرفة فى فكر بديع الزمان لا على أساس نظرية تحتاج إلى دراسة وتأمل، وإنما على أساس التعادل بين الكم والكيف، وبين المادة والروح، وبين

الغاية والسبب، وبين الدنيا والآخرة، فلا إفراط ولا تفريط طبقاً لقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾.

لقد دعا بديع الزمان إلى الربط بين الحواس المرهفة وبين العقل الباحث المنظم أو الوجدان النقى.

والإمام بديع الزمان سعيد النورسى لا يقف عند حد معرفة الله باعتبارها غاية الغايات كما وقف غيره من فلاسفة ومتكلمين، ولكن يعول على ما يترتب على معرفة الله من نتائج فى حياة الإنسان والإنسانية.

ويقول فى "الكلمات" : "إن كل من عرف الله تعالى حق المعرفة وملأ قلبه من نور محبته سيكون أهلاً لسعادة لا تنتهى، ولنعمة لا تنضب، ولأنوار وأسرار لا تنفذ، وسينالها إما فعلاً، وواقعاً، أو استعداداً، وقابلية، بينما الذى لا يعرف خالقه حق المعرفة ولا يكن له ما يليق من حب وود يصاب بشقاء مادى ومعنوى دائمين، ويظل يعانى من الآلام والأوهام ما لا يحصر".

ويقول فى "المكتوب العشرون" : "واعلم أن أعلى مرتبة للإنسانية وأفضل مقام للبشرية هو معرفة الله التى فى ذلك الإيمان.

واعلم أن أزهى سعادة للإنس والجن وأحلى نعمة هو محبة الله النابعة من تلك المعرفة.

واعلم أن أصفى سرور لروح الإنسان وأنقى بهجة لقلبه هو اللذة الروحية المترشحة من تلك المحبة".

وهذا يدلك على أن المستجيبين للمنهج الإلهى عبر الأجيال والعصور ومن عكفوا كذلك على وحى الله بكل الإيمان واليقين يحظون بعظيم النتائج وباهر الآثار.

والإيمان بالله لا يكون يقينياً إلا إذا أسس وبنى على معرفة بالمعبود، والمعرفة هى من فعل العبد المنسوبة إليه وبها يصير محموداً عند ربه.

ولا شك أن الاستجابة لدين الله تبارك وتعالى تضفى على أصحابها رباطاً وحكمة واستقراراً ويقيناً وثباتاً وتوفيقاً وصواباً ورشداً بحيث يجدون لهذا جميعاً أبر الآثار وأوفى النتائج فى سلوكهم وأخلاقهم وأنماط حياتهم. لقد حظى أصحاب معرفة الله عبر الأجيال والعصور بعظيم النتائج وباهر الآثار لقد أثابهم الله فى الدنيا والآخرة.

وليس هناك من شئ هو أبر بالإنسان فى حاضره وفى مستقبله ولا أوفى بأمر الأمة فى شئون دينها ودنياها من إيمانها بربها ومعرفتها به.

إذ يقودها ذلك إلى كل الحق والخير والصواب والرشد.

الأمر الذى يغمرهم به ربهم بالرضا والرضوان ويشملهم بالطمأنينة والسكينة ويصب فى وجدانهم من آيات الثبات ما يناوئون به العواصف ويطاولون به الشم الراسيات ويقودهم إلى مثوبة الله وفتحه وتأييده ورحمة منه ومغفرة ورضوان.

ودور الإيمان فى حصول المعرفة عظيم.

وقد لا يخفى أن معرفة الله تقوم بالتأصيل لجوهر الفطرة ومتابعة بعثها لضمان استمرار حركتها وسعيها إلى الله فى إطار ما تحتوى الطاعة من منهج متكامل، الأمر الذى يضع بصماته على خُلق العارف ويطبع انعكاساته عليه فيكون له أعظم الآثار والنتائج.

ومن المعروف أن البناء النفسى لا يعرف إلا فى رحاب الحق، وأن فضائل الذات لا توجد ولا ترقى إلا من خلال الممارسة العملية.

يقول بديع الزمان سعيد النورسى: "إن أصول العروج إلى عرش الكمالات وهو معرفة الله جل جلاله أربعة:

أولها: منهاج علماء الصوفية المؤسس على تزكية النفس والسلوك الإشراقى.

ثانيها: طريق علماء الكلام المبنى على الحدوث والإمكان.

ثالثها: مسالك الفلاسفة.

هذه الثلاثة ليست مصونة من الشبهات والأوهام.

رابعها: المعراج القرآنى الذى يعلنه ببلاغته المعجزة فلا يوازيه طريق فى الاستقامة والشمول فهو أقصر طريق وأوضحه إلى الله وأشمله لبنى الإنسان".

ويقول فى "المثنوى العربى النورى" محاكمات عقلية فى التفسير والبلاغة والعقيدة: "إن رسائل النور ليس مسلكها مسلك العلماء والحكماء.. بل هو مسلك مقتبس من إعجاز القرآن، يخرج زلال معرفة الله عن كل شئ، فيستفيد السالك فى رسائل النور فى لحظة مالا يستفيده سالكو سائر المسالك فى سنة، وذلك سر من أسرار القرآن يعطيه الله من يشاء من العباد.

فإذا كان المفكرون الإسلاميون أغراهم العقل وما وصل إليه من تقدم الفكر اليونانى فإن بديع الزمان سعيد النورسى جعل رائده الإعجاز القرآنى.

والمنهجية المعرفية القرآنية فى فكره قادرة على التفاعل مع ظواهر بناء العقل المسلم وتشكيله.

وإذا كانت الحضارة الغربية بمذاهبها وفلسفاتها قد فصلت بين الدين والعقل وجعلت العقل وعلومه خارج مجال العلوم الدينية، فإن بديع الزمان الذى قال بالمعراج القرآنى جعل للعقل حضوره على نحو من التكامل والتوافق.



الفهرس

رقم الإيداع

٩٨/١٠٨٩١



طـبع آمـون

٤ عطفة فيروز - متفرع من ش إسماعيل أباظة - لاظوغلى

تليفون : ٣٥٤٤٥١٧ - ٣٥٤٤٣٥٦